مفهوم العلمانية عند الدكتور عبد الوهاب المسيري

د. موضي سليمان علي الكريدا

أستاذ مساعد جامعة أم القرى فرع الليث

يتناول هذا البحث الرؤية الفكرية التي قدمها الدكتور المسيري لمدلول مصطلح العلمانية والتنازع حول حقيقته وإشكالياته وجذوره والمدخلات الفكرية وتجلياتها في الفكر الغربي والمفاهيم المترتبة على عمليات العلمنة الشاملة في مختلف مسارات الحياة. وهدف البحث إلى بيان الإشكالات المتعلقة بمدلول مفهوم العلمانية وغموضه، وعرض رؤية المسيري للمدخلات الفكرية على مفهوم العلمانية، والوقوف على منهجه في تفكيك مفهوم العلمانية وظواهرها، وعرض رؤيته لعمليات العلمنة الشاملة. واستخدمت الباحثة المناهج الوصفي الاستقرائي والتحليلي والنقدي في استقراء وتحليل رؤية المسيري للعلمانية ونقده لها، وخلصت إلى نتائج البحث التي منها: أن إشكالية مفهوم العلمانية لدى الدكتور المسيري؛ ليست فعلًا واعيًا أو تعبيرًا صريحًا بقدر ما هي حركة عالمية خفية، تعبر عن ذاتها من خلال مظاهر مادية، ومنظومة فكرية تواجه الدين، وقد أسس المسيري نظرته باعتبار العلمانية ذات دائرتين الجزئية والشاملة، ولا يمكن فهم الجزئية إلا باستيعاب الشاملة، لأنها بنيتها الكامنة ومرجعيتها النهائية، كونها علمانيتين لا علمانية واحدة، وذهب إلى أن عملية الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة هي في جوهرها عملية تفكيك للإنسان فيلغى الحيز الإنساني ولا يبقى سوى الحيز الطبيعي المادي، والعلمانية في نظر المسيري متتالية تتحقق حلقاتها تدريجيًا عبر الزمان، وتتحول من علمنة الفكر الرؤية نحو درجات أشمل، فمن الاقتصاد إلى السياسة إلى الوجدان والأحلام، وأخيرًا عالم السلوك في الحياة العامة والخاصة. وأوصت الباحثة الباحثين والأكاديميين وطلاب الدراسات العليا بدراسة مفهوم العلمانية عند مفكرين آخرين على نمط رؤية المسيري لمفهوم العلمانية وتجلياتها، ودراسة فكر الدكتور المسيري ورؤيته لكثير من المسائل الثقافية والفكرية المعاصرة.

الكلمات الافتتاحية: المفهوم – العلمانية – التجليات – العلمنة الجزئية – العلمنة الشاملة.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

لقد طغت الكثير من المصطلحات الفكرية والسياسية والاجتماعية على حياتنا المعاصرة، وصار لها دور فاعل في التوجيه والتثقيف وإدارة شؤون الحياة، وتعد مصطلحات مثل: "التحديث" و"التنوير" و"العقلانية و"العلمانية"...الخ، من أبرز المصطلحات الشائعة اليوم، وقد أحرز المصطلح الأخير على وجه الخصوص شيوعًا غير عادي في منطقتنا العربية والإسلامية، بل على مستوى العالم، بحيث أصبح واحدًا من أهم المصطلحات في الخطاب التحليلي (الاجتماعي والسياسي والفلسفي)، ويظن الكثير أن مصطلحًا على هذه الدرجة من الأهمية والذيوع، لا بد أن يكون واضحًا تمام الوضوح، محدد المعاني والأبعاد، وكان ممن كتب في هذا الموضوع الدكتور عبد الوهاب المسيري –يرحمه الله– لذا رأيت أن يكون بحثي هذا بعنوان: مفهوم العلمانية وتجلياتها عند الدكتور عبد الوهاب المسيري.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

١. تكمن أهمية هذا البحث أنه يقدم رؤية شاملة لمفهوم العلمانية عند الدكتور عبد الوهاب المسيري، لأن الدكتور المسيري من أكثر المفكرين المعاصرين اهتمامًا بالعلمانية وتناولًا لها، لذلك يعتبر تناوله للموضوع مهمًا في مجال الدراسات الفكرية والفلسفية.

٢. يعد المسيري صاحب نظريةٍ متميزةٍ في تناول العلمانية؛ إذ قام منهجه على تشخيصها وتوصيفها بدقة متناهية، وسبر أغوارها بطريقة لم يسبقه إليها أحد، مما أعطى هذا البحث قيمته العلمية.

٣. المأمول من هذا البحث تقديم الرؤية الحقيقة للعلمانية، بتشريح عميق لها وهتك لأستارها وإسقاط لشعاراتها الزائفة، وفق المشرط العلمي الفكري والفلسفي للدكتور المسيري.

٤. لعل هذا البحث يسهم في تقديم جرعة وعي فكرية وثقافية للمجتمع المسلم بمفهوم العلمانية الذي وفد على الأمة الإسلامية، واستهدف إبعادها عن عقيدتها وشريعتها، وربطها بالفكر المهيمن على هذا العصر البعيد عن هدي الله ومنهج رسوله ﷺ.

٥. يكشف هذا البحث زيف "العلمانية" ذلك المصطلح الغربي الذي يوحي ظاهره أن طريقة الحياة التي يدعو إليها تعتمد على العلم وتتخذه سندًا لها؛ للإيهام بصواب الفكرة واستقامتها؛ حتى انطلى الأمر على كثير من الناس فقبلوا المذهب منبهرين بشعاره.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

إن غموض مدلول مصطلح العلمانية والتنازع حول حقيقته والمفاهيم المترتبة عليه؛ خلق جدلًا واسعًا حول المدخلات الفكرية على مفهوم العلمانية وإشكالياته، وهذا انعكس على الجذور الفكرية للعلمانية ومدخلاتها وتجلياتها في الفكر الغربي، مما جعل محاولات استعادة بناء مفهوم العلمانية ترتكز على عمليات العلمنة الشاملة في مختلف مسارات الحياة؛ مما جهل المهمة عسيرة على الباحثين العرب والمسلمين في تفكيك المفهوم واستجلاء حقيقة العلمنة، وكان لحد كبار المفكرين العرب والمسلمين دوره الأبرز في ذلك؛ وعليه فإن إشكالية هذا البحث تتمحور حول التساؤل الرئيس الآتي:

ما مفهوم العلمانية وتجلياتها في فكر الدكتور عبد الوهاب المسيري؟

وتتفرع عن هذا التساؤل الرئيس التساؤلات الفرعية الآتية:

١. ما الإشكاليات المتعلقة بمدلول العلمانية ونعزز غموضه؟
٢. ما المدخلات الفكرية على مفهوم العلمانية وفق الدكتور المسيري؟
٣. كيف تمكن الدكتور المسيري من تفكيك مصطلحات العلمانية وظواهرها؟
٤. كيف عرض المسيري تمركز فكر العلمانية بين الذات والموضوع؟
٥. ما الجذور الفكرية للعلمانية، وتجلياتها في الفكر الغربي؟
٦. ما رؤية المسيري لاستعادة بناء مفهوم العلمانية؟

٧. ما عمليات العلمنة الشاملة التي كشفها الدكتور المسيري؟

أهداف البحث:

١. بيان الإشكالات المتعلقة بمدلول مفهوم العلمانية وغموضه.
٢. عرض رؤية المسيري للمدخلات الفكرية على مفهوم العلمانية.
٣. الوقوف على منهج المسيري في تفكيك مفهوم العلمانية وظواهرها.
٤. تحليل تمركز العلمانية بين الذات والموضوع الذي كشفه المسيري.
٥. إبراز الجذور الفكرية للعلمانية وتجلياتها في الفكر الغربي.
٦. بيان رؤية المسيري لاستعادة بناء مفهوم العلمانية.
٧. التفصيل في رؤية المسيري لعمليات العلمنة الشاملة.

حدود البحث:

تقتصر حدود البحث الموضوعية على رؤية الدكتور عبد الوهاب المسيري لمفهوم العلمانية وتجلياتها من خلال أبرز كتبه في ذلك، وهو كتاب: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، بالإضافة لبعض كتاباته الأخرى المتناثرة المتعلقة بالعلمانية.

منهج البحث:

اعتمدت الباحثة في هذه الدراسة على المناهج العلمية الآتية:

المنهج الوصفي الاستقرائي: وهو أسلوب من أساليب التحليل المركزي على معلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة، أو موضوع محدد، أو فترة أو فترات زمنية معلومة، وذلك من أجل الحصول على نتائج علمية، ثم تفسيرها بطريقة موضوعية، بما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة.(١). وهو من المناهج الاساسية في البحوث الوصفية وتعتمد الطريقة الاستقرائية على تجميع البيانات، والحقائق الجارية عن موقف معين، فقد استقرأت الباحثة الكثير من النصوص في كتاب الدكتور المسيري، وعلى وفقها قدمت رؤيته لمفهوم العلمانية.

(١) ينظر: البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته، رجاء وحيد جويدي، دار الفكر، دمشق ط١، سنة ٢٠٠٠م. ص١٨٥.

المنهج التحليلي: وهو "المنهج الذي يمكّن الباحث من القيام بتحليل الظاهرة التي يتم دراستها، ويقوم بالمقارنة بينها وبين كافة الظواهر الأخرى التي تتعلق بها، لكي يتم تفسيرها وتحليلها واستنتاج الحلول بشكل مدروس"(١)، ومن هذا المنهج سأقوم أيضًا بتحليل النصوص، ومن ثم الخلوص إلى آراء وثيقة تبنى عليها استنتاجات هذه الدراسة.

المنهج النقدي: وهو المنهج الذي يعني "التمييز بين الجيد أو الصحيح وغيره، أو بين الايجابي والسلبي في الموضوع أو المحتوى المدروس، وإظهار ذلك مسوغًا بأدلته ومستندًا فيه إلى أصول الفن العلمي الذي ينتمي إليه البحث وإلى مسلماته؛ تقويمًا له، وحكمًا عليه، وتعاملًا معه بما يلزم علميا"(٢).

خطة البحث:

المقدمة.

تمهيد: ترجمة المسيري.

المبحث الأول: غموض مدلول العلمانية. وفيه مطالب:

المطلب الأول: الإشكاليات في مدلول العلمانية.

المطلب الثاني: المدخلات الفكرية على مفهوم العلمانية.

المطلب الثالث: تفكيك مصطلحات وظواهر العلمانية.

المطلب الرابع: تمركز فكر العلمانية بين الذات والموضوع.

المطلب الخامس: الجذور الفكرية للعلمانية، وتجلياتها في الفكر الغربي.

المبحث الثاني: استعادة بناء مفهوم العلمانية.

المبحث الثالث: عمليات العلمنة الشاملة، وفيه مطالب:

(١) البحث العلمي الخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية، محمد شفيق، المكتبة الجامعية-مصر، ٢٠٠١م، ص ١١١.

(٢) أسس مناهج البحث العلمي وتحقيق النصوص في العلوم الإسلامية والعربية، علي بن عتيق الحربي، الناشر المتميز للطباعة والنشر-الرياض، ط١، ١٤٣٩هـ-٢٠١٨م، ص ١٣١.

المطلب الأول: علمنة الفكر.

المطلب الثاني: علمنة الرؤية.

المطلب الثالث: علمنة المعرفة.

المطلب الرابع: علمنة الإعلام والأحلام.

المطلب الخامس: علمنة الحياة.

الخاتمة.

المراجع.

التمهيد: التعريف بالدكتور عبد الوهاب المسيري[1]

هو الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب المسيري، مفكر عربي إسلامي، وأستاذ غير متفرغ بكلية البنات جامعة عين شمس، وُلد في دمنهور ١٩٨٣م، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها (مرحلة التكوين أو البذور)، ثم التحق عام ١٩٥٥م بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية وعُين معيدًا فيها عند تخرجه، وسافر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣م حيث حصل على درجة الماجستير عام ١٩٦٤م (من جامعة كولومبيا) ثم درجة الدكتوراه عام ١٩٦٩م من جامعة رتجرز Rutgers (مرحلة الجذور).

وعند عودته إلى مصر قام بالتدريس في جامعة عين شمس، وفي عدة جامعات عربية من أهمها جامعة الملك سعود (١٩٨٣-١٩٨٨)، كما عمل أستاذًا زائرًا في أكاديمية ناصر العسكرية، وجامعة ماليزيا الإسلامية، وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام (١٩٧٠- ١٩٧٥م)، ومستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك (١٩٧٥- ١٩٧٩). وهو عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية بليسبرج، بولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، ومستشار التحرير في عدد من الحوليات التي تصدر في ماليزيا وإيران والولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا (مرحلة الثمر).

ومن أهم أعمال الدكتور المسيري:

---

[1] بتصرف من: مقدمة كتابه: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ١/ ١١. ولم تجد الباحثة أي ترجمة أخرى غيرها.

١. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد (ثماني مجلدات).

٢. كتاب رحلتي الفكرية: سيرة غير ذاتية غير موضوعية.

وللدكتور المسيري مؤلفات أخرى في موضوعات شتى من أهمها:

العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة.

إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد.

كما أن له مؤلفات أخرى في الحضارة الغربية والحضارة الأمريكية مثل:

الفردوس الأرضي.

الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان.

الحداثة وما بعد الحداثة.

دراسات معرفية في الحداثة الغربية.

والدكتور المسيري له أيضًا دراسات لغوية وأدبية من أهمها:

اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود.

دراسات في الشعر.

دراسات في الأدب والفكر.

كما صدر له ديوان شعر بعنوان أغاني الخبرة والحيرة والبراءة: سيرة شعرية.

وقد نشر الدكتور المسيري عدة قصص وديوان شعر للأطفال.

وله العديد من المقالات أهمها:

الدولة الصهيونية بين المأساة والملهاة – الإنسان والشيء – الحجاب بين الدين والمجتمع.

إلقاء الحجارة في الضفة الغربية.

وفاته:

توفي يوم الخميس ٢ يوليو ٢٠٠٨م. في مستشفى القاهرة.

المبحث الأول

غموض مدلول العلمانية، واستعادة بناء المفهوم

المطلب الأول: الإشكاليات في مدلول العلمانية

اكتنف مصطلح "العلمانية" الغموض في التصور الحقيقي للمدلول، واشتهر بالتصور الساذج؛ الذي اختزلته الظاهرة العلمانية بمجموعةٍ من الأفكار والممارسات؛ التي أدَّت إلى إهمال البنية[١] الكاملة للمفهوم، أو غياب المعنى الواضح، كما أن الغموض الجذري لنواة المفهوم، ونشوئه؛ أدى إلى اختلاط دلالته، وإحداث الشروخ المفاهيمية داخله، وصار مصطلحًا موبوءًا بالمدخلات العقدية المجردة من القيم، وحظوظ الجسد والمادة. وستحاول الباحثة أن تبين بعض أسباب الغموض والإشكاليات؛ كما يراها الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله.

الفرع الأول: الإشكالية المفاهيمية للعلمانية:

جوهر هذه الإشكالية أن مصطلح "علمانية" ينطلق من تصور فلسفي للواقع، أكثر من المدلول، ولا يتم فهمه إلا من خلال التحقق من نواة المفهوم بفكرة الحلولية[٢]، ووحدة الوجود[٣]، وظروف نشوئه، وتطوره،

---

(١) البنية: هي شبكة العلاقات المترابطة التي يعقلها الإنسان بعد ملاحظته الواقع، ويمكن التمييز بين البنية السطحية، والعميقة. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٥١، ملحق أهم المصطلحات.

(٢) الحلولية: فرقة من المتصوِّفة تعتقد مذهب الحلول، وهو القول بأنّ الله حال في كل شيء. وهو مذهب للنصارى في القول بحلول اللاهوت بالناسوت أي عيسى، ومذهب للرافضة في قولهم بالحلول في علي بن أبي طالب ﷺ. ينظر: الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ، ٢/٥٤.

(٣) وحدة الوجود: تعنى أن الكائن الممكن يستلزم كائناً آخر واجبه الوجود بذاته، ليمنحه الوجود، ويفيض عليه بالخير والابداع. وأن العالم مظهر من مظاهر الذات الإلهية؛ وهو مذهب قديم أخذت به البراهمانية، والرواقية، والافلاطونية الجديدة، والصوفية. واشتهر هيجل بالقول بوحدة الوجود المثالية. ينظر: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه د/إبراهيم مدكور دار المعارف بمصر ط٢/ ١٩٦٨م – ١/ ٥٦ – ٥٧. والمعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م، ٢/ ٥٦٩.

وتاريخه الجدلي بين الغرب أنفسهم، ثم الجدل العربي، وتداعيات استعمال مصطلح "العلمانية" بالشروخ الفكرية التي أحدثها في وعي المجتمعات الدينية، بتغييب المرجعية(١) والقيم العرفية والأسرية، وتغليب الرؤية النفعية المادية(٢).

وتكمن إشكالية المفهوم لدى الدكتور المسيري؛ على أن "العلمانية" ليست فعلًا واعيًا، أو تعبيرًا صريحًا؛ بقدر ما هي حركة عالمية خفية، وتعبر عن ذاتها من خلال مظاهر مادية، ومنظومة فكرية تواجه الدين.

ورأى الدكتور المسيري أن يؤسس نظرته باعتبار أن العلمانية ذات دائرتين أو مستويين: "العلمانية الجزئية"، و"العلمانية الشاملة". ولا يمكن فهم الجزئية إلا باستيعاب الشاملة، لأنها بنيتها الكامنة ومرجعيتها النهائية، كونها علمانيتين، لا علمانية واحدة:

إحداهما: علمانية جزئية؛ وهي فصل الدين عن الدولة.

والثانية: علمانية شاملة؛ وتعني فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، لا عن الدولة فحسب؛ وإنما عن الطبيعة، وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص، بحيث تنزع القداسة عن العالم ويتحول إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها لصالح الأقوى(٣).

ثم وضع المسيري إشكاليات عامة، ومن أهمها ما يأتي:

(١) إشكالية مفهوم العلمانية الجزئية:

ناقش الدكتور المسيري حالة العلمانية الجزئية باعتبارها فصل الدين عن الدولة من ثلاث زوايا:

الزاوية الأولى: أن المجتمعات الإنسانية المركبة كانت تعيش فصل الدين عن الدولة؛ سيما المجتمعات الوثنية؛ بما كانت تمارسه في شكل العلمانية الجزئية؛ حيث تتمايز المؤسسة السياسية عن المؤسسة الدينية.

---

(١) المرجعية: هي الفكرة الجوهرية التي تشكل أساس كل الأفكار. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٥٥، ملحق المصطلحات.

(٢) النفعية المادية: نظرية أخلاقية غربية تربط بين صحة النتائج والسلوك، ويعتقد أصحابها بأن السلوك له سبب مادي وسبب نفعي. ينظر: ماهية النفعية، ستيورات ميل ترجمة سعاد شاهرلي حرار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٣٦.

(٣) يُنظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ١/ ١٦.

ثم يحاول أن يصف المجتمع الإسلامي بهذا التمايز بين الديني والدنيوي. واستشهد بحديث الحباب بن المنذر ﷺ عندما قال: (يا رسول الله أرأيت هذا المنزل منزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: بل الرأي والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك، ثم غَوِّر كل قليب بها إلا قليباً واحداً، ثم احفر عليه حوضاً، فنقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال: «قد أشرت بالرأي»، ففعل ذلك)[1] . وكذلك حديث تأبير النخل؛ عن أنس بن مالك: (أَنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقالَ: لو لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بهِمْ فَقالَ: ما لِنَخْلِكُمْ؟ قالوا: قُلْتَ كَذا وَكَذا، قالَ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْياكُمْ»)[2] .

ثم يقول الدكتور المسيري: "وثمة تمييز هنا بين الوحي الذي لا يمكن الحوار بشأنه، وبين الحرب والخديعة؛ أي: آليات إدارة المعركة العسكرية التي تخضع لإدراك ملابسات اللحظة. أي أن ثمة تمايزًا بين المؤسسة الدينية والمؤسسة العسكرية... ومع تزايد تركيبة الدولة الإسلامية مع الفتوحات والمواجهات تزايد التمايز بين المؤسسات، وتزايد الفصل فيما بينها"[3] .

الزاوية الثانية: أن العلمانية الجزئية تتعامل مع الدولة أنها "تعني في واقع الأمر بعض الإجراءات السياسية والاقتصادية ذات الطابع الفني في إدارة الدولة، مما ليس بإمكان رجال الدين أن يُفتوا فيه"[4].

الزاوية الثالثة: "أن فصل الدين عن الدولة مسألة تنطبق على الآليات والإجراءات الفنية وحسب، ولا تنطبق بأية حال على القيمة الحاكمة والمرجعية النهائية للمجتمع والدولة"[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢٦/٢، رقم ٥٨٠١، ورقم ٥٨٠٢)، وقال الإمام الذهبي في التلخيص: "حديث منكر وسنده". وأورده الذهبي في تاريخ الإسلام (٥/ ١٨٢)، وضعفه. وانظر: السيرة النبوية، محمد بن هشام الحميري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، ٢/ ٤٥٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم ٢٣٦٣، ٧/ ٩٥.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ص ١٨.

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها.

ومن هنا يستدرك المسيري ما سبق بقوله: "أصبحت المقدرة التفسيرية والتصنيفية لنموذج العلمانية الجزئية ضعيفة إلى أبعد حد"(٢).

وأصبح مصطلح "علمانية" باعتبارها "فصل الدين عن الدولة" دالًا يقصر عن الإحاطة بمدلوله؛ ولذا اكتسب مصطلح "العلمانية" خاصية جيولوجية(٣) تراكمية، فحين يظهر تعريف جديد يُضاف إلى التعريفات السابقة، ويستمر إلى جوارها، وقد أدى هذا إلى أن الحوار بشأن العلمانية أصبح مشوشًا بل مستحيلًا إذ يستخدم المتحاورون نفس المصطلح "علمانية" ولكن كل واحد منهم يُسقط عليه معنىً مختلفًا ويراه في إطار مرجعية مختلفة(٤).

(٢) إشكالية مفهوم العلمانية الشاملة:

مفهوم العلمانية الشاملة هو خروج من دراسة "البنية الكامنة للعلمانية الجزئية"، إلى دراسة ظاهرة العلمانية باعتبارها مجموعة من الأفكار المحددة والممارسات الواضحة. لأنها بهذه الظاهرة التاريخية كانت "ثمرة عمليات كثيرة متداخلة بعضها ظاهر واضح والآخر بنيوي كامن، وتشمل كل جوانب الحياة، العامة والخاصة، والظاهرة والباطنة، وقد تتم هذه العمليات من خلال الدولة المركزية، بمؤسساتها الرسمية، أو من خلال قطاع اللذة من خلال مؤسساته الخاصة، أو من خلال عشرات المؤسسات الأخرى (ومنها المؤسسات الدينية)، أو من خلال أهم المنتجات الحضارية أو أتفهها(٥).

ومن هنا استعرض المسيري بعض الأمثلة في إشكالية العلمانية الشاملة، نظرًا لاختلاف الفلسفات أو السياسات، والتي بمؤداها تخدم الرؤية العلمانية بشكل خفي وكامن، ومن تلك الأمثلة:

---

(١) المرجع السابق، ١/١٩

(٢) المرجع السابق نفسه ١/٢٠

(٣) الجيولوجية التراكمية: دراسة العوامل الزمنية التاريخية المؤثرة، ومدى تطورها خاصة في الفترة السابقة.

(٤) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/٢٠

(٥) المرجع السابق، ١/٢٣

١. التحولات الاجتماعية: فالفلسفة الشيوعية ذات طابع إلحادي هدمي، لكن الدولة السوفيتية سيرتها عقيدة العلمانية الشاملة، بينما أمريكا عكس ذلك؛ فهي تسمح بالحريات وتسمح بالدعاية الدينية، وما زالت تكرس الإله في أعرافها السياسية.

ثم يقول المسيري: "ستجد أنه رغم شراسة الدعاية الإلحادية في الاتحاد السوفيتي فإن فعاليتها في عملية العلمنة أقل بكثير من فعاليات التصنيع والتمدن"(١) الذي تنشره أمريكا في العالم؛ لأن أمريكا تمارس العلمانية الشاملة بالهيمنة على القيم والأخلاق من خلال عمليات التمدن، وتطبيع الأفكار العلمانية.

لذا فعملية التحويل من حقل اجتماعي إلى آخر، هو منحى متطور للعلمنة(٢).

٢. الأفكار التي تبدو محايدة وبريئة: لكنها "تضمر في واقع الأمر الرؤية العلمانية"(٣) مثل: فكرة الإنسان الطبيعي، والعودة إلى الطبيعة، وتبني العقلية المادية، وخطاب التمركز حول الأنثى.. وغيرها. "فإن كثيرين ممن قاموا بالترويج لهذه الأفكار ولغيرها لم يدركوا النماذج الكامنة وراءها"(٤) .

٣. المنتجات الحضارية: كأحد آليات العلمنة الشاملة؛ كما يضرب الدكتور المسيري مثالًا:"بـ التِّي شيرت T –shirt، الذي يرتديه أي طفل أو رجل وقد كُتب عليه "اشرب كوكا كولا" فصار الرداء للتعبير عن الهوية، طالما كان لستر عورة الإنسان، ولوقايته من البرد(٥)، وهكذا في كل الصناعات، والفنون، والرفاهية، والذوق الثقافي، صارت موظفة في تصدير العلمانية الشاملة.

(٢) إشكالية التصور لفكرة العلمانية (ثابتة أم متتالية):

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢٥/١

(٢) رفيق عبد السلام، في عالم عبد الوهاب المسيري، حوار نقدي حضاري، دار الشروق، القاهرة، ط١/ ٢٠٠٤م، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢٦/١

(٤) المرجع السابق، ٢٦/١.

(٥) المرجع السابق نفسه، ٢٦/١.

المتأمل لواقع العالم أن ظهور الفلسفة الشيوعية ويقابلها الرأسمالية هي تدور حول موضوع واحد وهو "مركزية الإنسان" بحريته وفطرته، لغرض إزالة الإنسان كظاهرة مركبة مستقلة حرة، مما خلقت العلمانية بين النموذجين ـ الشيوعية والرأسمالية ـ صراعًا حول: التمركز حول الإنسان، والتمركز حول المادة.

وهنا يقول المسيري: "يظن كثير من الناس أن العلمانية فكرة ثابتة أو مخطط واضح المعالم وحسب"(١) ، ثم يقرر المسيري بأن العلمانية في الواقع "متتالية" تتحقق تدريجيًا في الزمان، ومن خلال عمليات علمنة متصاعدة آخذه في الاتساع والتحقق، ومن ثم نجد أن معدلات العلمنة في المراحل الأخيرة، كما أن المجالات التي تتم علمنتها في المراحل الأولى محدودة، ولا تتجاوز بعض جوانب رقعة الحياة العامة، ولكن نطاق العلمنة يبدأ في الاتساع، وتزداد حدته فتغطي مزيدًا من المجالات؛ إلى أن تغطي معظم المجالات، أو تمتد لتغطيها جميعًا، ولا فرق في هذا بين رقعة الحياة العامة ورقعة الحياة الخاصة.

ويستنتج المسيري بأن العلمانية الشاملة ساهمت تدريجيًا في تذويب الإنسان الاشتراكي ليلتقي مع الإنسان الرأسمالي(٢) بنفس المثل المادية، أي أن "الإنسان الاشتراكي النبيل المجاهد الذي يضحي بذاته من أجل الطبقة العاملة ومسار التاريخ؛ أصبح تدريجيًا لا يختلف عن الإنسان الرأسمالي المقبل على الدنيا والذي لا يفهم سوى منطق منفعته الشخصية والذاتية"(٣) .

والعالم الغربي الذي تحكمه الدولة المسيحية لم يقضِ عليه سلطة رجال الدين على الفور مع ظهور الفكر العلماني، "بل استمرت بمطلقاتها الدينية والأخلاقية والإنسانية في ضمائر الناس ووجدانهم وعقولهم، بل وفي بعض المؤسسات الوسيطة مثل الأسرة"(٤) .

---

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢٩/١.

(٢) الإنسان الرأسمالي: هو تركيب استعمله المسيري؛ يعني: الدمج بين الإنسان وحاجاته المادية، واحتواء كافة القوى السوقية والاقتصاد القائم على السوق. موقع الانطولوجيا العربية.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٣٣/١

(٤) المرجع السابق، ٣٦/١.

لكن العلمنة أخذتها تدريجيًا، واستوردت بعض المطلقات العقدية للمسيحية نفسها، وجعلتها مطلقات إنسانية مادية، بتفريغ حقائقها الإيمانية.

الفرع الثاني: الإشكالية الدلالية للعلمانية:

(١) الاختلاط الدلالي في الفكر الغربي:

يؤكد الدكتور المسيري على إشكالية اختلاط الحقل الدلالي لمصطلح العلمانية، في المجتمع الغربي، "أن علم الاجتماع الغربي قد ورث أيضًا الاختلاط في الحقل الدلالي لكلمة "علمانية"، وأخفق في أن يطور نموذجًا شاملًا ومركبًا للعلمانية. ثم يقول المسيري: ونحن لا نرى غرابة في ذلك، فهذا العلم ـ شأنه شأن كل العلوم الإنسانية في الغرب ـ جزء من المجتمع الغربي، أفُقه محدّد بأفق مجتمعه في معظم الأحيان، ومرجعيته مرجعية العلوم الغربية الإنسانية، ومنطلقاته هي منطلقات المجتمع الغربي، ومما لا شك فيه أنها مرجعية ومنطلقات علمانية"[١].

"لكل هذا نجد علم الاجتماع الغربي يرصد الواقع العلماني (في الشرق والغرب) لا باعتباره كلًا متماسكًا، وإنما باعتباره مجموعة من ظواهر مختلفة مستقلة لها تواريخ مستقلة، فكلما اتضحت معالم ظاهرة ما فإنه يحصر سماتها ويطلق عليها اسمًا، الظاهرة تلو الأخرى، دون أن يربطهما بعضها ببعض؛ داخل نموذج تفسيري واحد أو رؤية متكاملة، وحين يتوصل إلى شيء قريب من هذه الرؤية؛ فإنه كان يسميها تسميات مختلفة، فهي تارة "رؤية حديثة"، وتارة أخرى "رؤية علمية"، وثالثة "رؤية علمانية"...وهكذا"[٢] .

ولذا، ظهرت نماذج تفسيرية ومصطلحات وصفية متعددة، ولكن ظل هناك غياب ملحوظ للنموذج التفسيري الكلي الشامل؛ الذي يبين الوحدة الكامنة وراء التعدد"[٣].

(٢) الاختلاط الدلالي في الفكر العربي:

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/٣٩.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٤١.

(٣) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ٢٠-٣٩. وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٤/ ٢٠٩-٢١٦.

بقدر ما وقع اختلاط دلالي في الفكر الغربي؛ حيث منشأ العلمانية؛ فإن المفكرين العرب استنسخوا الفكرة على ما فيها من إشكاليات؛ ثم انضافت إليها إشكاليات أكثر فأكثر؛ بسبب المدخلات الفكرية التي تماهت مع النظرية العلمانية، كالاشتراكية والقومية والحداثة في إطار تنازع أيديولوجي بين سلطة السياسة وسلطة العقيدة، وعدم التمييز بينهما(١).

قال الدكتور المسيري: "فنحن نستورد كثيرًا من مصطلحاتنا من الغرب، وهو ما يبين إيماننا بمركزية الغرب وعالميته، وقد استوردنا مصطلح "علمانية" فيما استوردنا، فكان من أكثر المصطلحات غموضًا وإبهامًا، رغم شيوعه في الآونة الأخيرة"(٢) .

وقد اعتقد بعض القوميين الليبراليين العرب أن العلمانية حتمية في عالم الحداثة؛ لأن "مسيرة التاريخ الكوني آيلة إلى العلمانية، وأن مسيرة التاريخ الاجتماعي والثقافي محكومة بهذا المسار، على الرغم من الصراعات الطبيعية التي تستثيرها هذه المسيرة مع القوى المحافظة الذي أضحى الدين علمًا عليها"(٣). فهذا الصنف يرى العلمانية بديلًا عن الدين، وخيارًا عقلانيًا وحيدًا لا مناص منه، وأنها "نزعة ترى أو تعمل على ما يقال له الفصل بين الدين والدولة"(٤) .

والسبب في هذا الاختلاط لدى المفكرين العرب هو النقل السطحي للمدلول كما هو مختلط في المعاجم الغربية، ولسبب آخر هو اختلاف أشكال العلمنة: "فهناك التشكيل الفرنسي الكاثوليكي، والتشكيل الإنجليزي والألماني البروتستانتي، والتشكيل الروسي الأرثوذكسي، وقد عرف كل تشكيل هذا المصطلح بطريقة مختلفة إلى حد ما انطلاقًا من تجربته الخاصة"(٥).

(١) السياسة الدولة والدين، د. برهان بن غليون، نقد المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١/ ٣٠٨.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/٥٩.

(٣) العلمانية تحت المجهر، د. عبد الوهاب المسيري، د. عزيز العظمة، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، لبنان، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٢٤.

(٤) عن العروبة والإسلام، عصمت سيف الدولة، دار البراق، تونس، ط٣، ص١١٦.

(٥) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ٥٩.

وثمت إشكاليات ساعدت في هذا الخلط؛ كترويج المصطلحات الرديفة للعلمانية مثل: الاستنارة، والتقدم، والتحديث، والتحرر، كونها أضافت مدخلات فكرية جديدة متناثرة.

ويخلص المسيري إلى القول بأن التعريفات لدى مفكري العرب: "ليست تعريفات تحاول وصف الواقع وتفسيره، وإنما هي أحكام أخلاقية تعكس لنا رؤية أصحابها، وموقفهم النفسي والأخلاقي من ظاهرة لم يقوموا بتعريف حدودها"(١) .

والواقع أن هذا الخلط ناتج عن عدم فهم مسألة العلاقة بين الدين والدولة في الفكر العربي، والنظر إليها من منظور التناقض بين قيم متنافية: قيم الدين القديمة وقيم الدولة الحديثة، وأيضًا: أن الدولة باتت تمارس العلمانية بقيم متناقضة ومزيفة مع الشعور السياسي للشعوب.

الفرع الثالث: إشكالية المراجعات لفكرة العلمانية:

(١) المراجعات في الفكر الغربي:

الملحوظ أن مراجعات العلمانيّة والحداثة في العالم الغربي بلغت أبعادًا ربما لم تصلها بين العلمانيين العرب، فلا توجد مراجعة تصل في راديكاليتها إلى ما وصلت إليه، على سبيل المثال، مراجعة (ارفنج كريستول- irving kristol)، المثقف الأميركي اليهودي، الذي يؤكد في دراسة كتبها مؤخرًا عن العلمانية أن عملية العلمنة جزء عضوي من عملية التحديث، وهو يصف العلمنة بأنها «رؤية دينية حققت انتصارًا على كلٍّ من اليهودية والمسيحية»، وهو يصرّ على تسميتها «رؤية دينية»، أي رؤية شاملة على الرغم من رفض العلمانيين ذلك، لأنها تحتوي مقولات عن وضع الإنسان في الكون وعن مستقبله لا يمكن تسميتها علمية، ذلك لأنها مقولات ميتافزيقية لاهوتية، وفي هذا الدين العلماني، يصنع الإنسان نفسه أو يخلقها تأليه الإنسان، كما أن العالم ليس له معنى يتجاوز حدوده، وبوسع الإنسان أن يفهم الظواهر الطبيعية وأن يتحكم فيها وأن يوظفها بشكل رشيد لتحسين الوضع الإنساني، ذلك أن المقدرة على الخلق، التي كانت من صفات الإله، أصبحت في المنظومة الدينية العلمانية

(١) المرجع السابق، ٩٩/١

من صفات الإنسان، ومن هنا ظهرت فكرة التقدُّم، وهذه العقيدة العلمانية هي الإطار المرجعي لكلٍّ من الليبرالية والاشتراكية"[١].

ويتتبع المسيري تصورات بعض المفكرين الغربيين قائلًا: وعلى الرغم من أن ماكس فيبر Max Weber، عالم الاجتماع الألماني، لم يتوجه إلى قضية العلمانية مباشرةً، فإن من اليسير أن نستخلص رؤيته من جماع كتاباته، والمدخل لفهم عملية العلمنة عند فيبر هو مفهوم الترشيد (بالإنجليزية: راشيوناليزيشن Rationalization)، وحيث إننا سنتناوله بالتفصيل في فصل قادم، فلنكتف بإيراد تعريف فيبر الترشيدَ (المادي) بأنه عملية تزايد الضبط المنهجي على كل مجالات الحياة، على أساس تصوُّرات علمية وقواعد ومبادئ عامة تستبد بالولاءات التقليدية والحماس الكاريزمي والوسائل السحرية والمرجعيات المتجاوزة لعالم الحواس والمادة بل والمبادئ الفردية، بحيث يدرك الإنسان أن العالم يتحرك وفقًا لقوانين عقلانية مادية قابلة للاكتشاف؛ أي: كامنة فيه، لا وفق قوى غامضة غير محسوبة مستعصية على الفهم، فالترشيد عملية شاملة (الدائرة الكبيرة)[٢].

وقد سكّ أحد النقاد الغربيين مصطلح «العلمانية الفاشيّة) (بالإنجليزية: fascist-secularism)، وهو مصطلح شاع في الآونة الأخيرة في بعض الصحف الغربية للإشارة إلى العلمانية في تركيا، فالمؤسسة العسكرية هناك هي التي تقوم بالدفاع عن «العلمانية» التي تعني في المعجم العلماني التركي «محاربة الدين»، وكي تنجز المؤسسة العسكرية هذا الهدف تلجأ إلى الأساليب الفاشية المعروفة ومنها التهديد بقلب نظام الحكم، وقد ضغطت المؤسسة العسكرية قبل سنوات قليلة، ونجحت بالفعل، في إقصاء حكومة أربكان عن الحكم، على الرغم من أن حزب الرفاه حصل على عدد من أصوات الناخبين يفوق ما حصل عليه أي حزب آخر، أي إن القوى العلمانية في تركيا معادية للديمقراطية، ومن هنا تصدق تسميتها «العلمانية الفاشية»[٣].

(٢) المراجعات في الفكر الحداثي العربي:

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ١٠١.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١٠٣ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه، ١/ ١٠٩.

رغم اختلاط الفكر العربي في إدراكهم حول مفهوم العلمانية الجزئية؛ إلا أن المراجعات توسعت في دراستها كما قال الدكتور المسيري: "من خلال تجلياتها في مجالات الحياة كافة؛ ابتداءً من عالم الاقتصاد، وانتهاءً بحياة الإنسان اليومية"(١) .

ويقول المسيري: "وقد اكتشف كثير من الدارسين العرب، بحكم تجربتهم التاريخية، كثيرًا من الجوانب المظلمة للعلمانية. فهناك ابتداءً ارتباط العلمانية بالإمبريالية"(٢) .

وقال: "وقد أدرك هؤلاء الدارسون أن ارتباط مصطلح العلمانية بالتسامح، واتساع الأفق، والتعددية، وقبول الآخر، والإيمان بالعلم ليس ضروريًا(٣) .

واستشهد المسيري لابن غليون قوله: "تبدو إشكالية فصل الدين عن الدولة عندنا مصطنعة منقولة عن الغرب، إن مشكلة الدولة في العالم التابع هي بالضبط أنها بلا دين ولا عقيدة، إن أصل المشكلة عندنا لا يكمن في سيطرة الدين، أو السلطة الكهنوتية على الدولة واعتدائها عليها، وعلى اختصاصاتها، وإنما ينبع العكس تمامًا؛ من مصادرة الدولة للدين، وسيطرتها عليه، واحتوائه، وتوظيفه في استراتيجياتها الخاصة، ورفضها السماح لغيرها بمثل هذه الممارسة، فالدولة العربية أصبحت ترى في احتكار التفسير الديني جزءًا أساسيًا من شرعيتها"(٤) .

وعمومًا فالكثير من مفكري العرب العلمانيين تقبلوا العلمانية الجزئية، ورفضوا العلمانية الشاملة حتى لا يسقطوا في المادية والعدمية، وحتى لا يتم تقويض الحيز الإنساني بكل ما يحوي من قيم وخصوصية(٥) . ويحرصون على تضييق نطاق العلمانية، أو تغليب العقل على قبولها بأنها لا تصطدم مع القناعة الشخصية بالتدين.

(٣) مراجعات الإسلاميين والقوميين:

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ١١١

(٢) المرجع السابق، ١/ ١١٩

(٣) المرجع نفسه، ١/ ١٢٠

(٤) المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، د. برهان غليون، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٨٢.

(٥) ينظر: إشكالية العلمانية في الفكر العربي المعاصر، عبد السلام محمد طويل، أوراق فلسفية العدد ١٩، ٢٠٠٨م، ص ٣٤٧.

يرى بعض رواد الفكر القومي أن "العلمانية" ليست قضية في الفكر العربي، ويؤكد الجابري على ضرورة استبعاد مصطلح العلمانية من قاموس الفكر العربي؛ كونها لا تتصالح مع الإسلام(١) .

ونفى بعض المفكرين الإسلاميين أن تكون لهم أية مشكلة مع الحداثة، ولا مع العلمانية بالمعنى الغربي؛ لأن مفهوم العلمنة أعمق من مجرد فصل الدين عن الدولة؛ وإلا لكانت الدولة السلطانية علمانية بالفعل"(٢).

ولم يعد القوميون يخفون أن العلمانية العربية إنما جاءت مثلها مثل سائر العلمانيات على الجملة، من باب إزاحة المؤسسة الدينية عن موقع الصدارة في ميادين التربية والفكر والقضاء(٣).

ويؤكد المسيري بأن ثمت مبررات غير واقعية، بقوله: "ولا تختلف استراتيجية فهمي هويدي للحفاظ على الحيز الإنساني، حيز الهوية والخصوصية والثوابت والقيم الأخلاقية، عن استراتيجية الجابري؛ فهو يجعل نقطة انطلاقه ما سماه "المشروع الوطني العام".. فالمعيار هنا ليس العلمانية أو الإيمانية، وإنما الانتماء إلى الوطن"(٤).

ويرى المسيري أن مطالبة الإسلاميين بتأكيدهم قبول التعددية التي تشمل التيار العلماني، "كانت موقفًا التقى عليه رأي آخرين من أهل الفقه والنظر، في مقدمتهم الدكاترة يوسف القرضاوي، وأحمد العسال، ومحمد سليم العوا، وعبد الغفار عزيز، وسيف الدين عبد الفتاح، وأبو العلا ماضي، وعادل حسين... بل يمكن القول بأن هذا الرأي الممثل للتيار الإسلامي الأساسي"(٥).

(١) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/١٢٢

(٢) مفهوم الدولة، د. عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٨٣م، ص ١٢٥.

(٣) الدين والدنيا في الواقع العربي، د. عزيز العظمة، ضمن كتاب قضايا فكرية، حول، الأصوليات الإسلامية في عصرنا الراهن، ص٣٠١.

(٤) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، ١/١٢٢

(٥) المرجع السابق، ١/١٢٤.

"ولعل هذا الموقف المتفتح خو الذي أدى إلى التقارب بين الإسلاميين والقوميين العلمانيين، وبخاصة بعد أن أدرك القوميون أهمية البعد الحضاري الإسلامي في المنظومة الحضارية العربية، وأهمية المنظومة الأخلاقية الإسلامية"[١] .

المطلب الثاني: المُدخلات الفكرية على مفهوم العلمانية

اعتنى الدكتور المسيري باستقراء مجموعة من المصطلحات المدخلة على مفهوم العلمانية، بأسلوب تفكيكي، ووصل إلى نماذج مصنفة، على النحو الآتي:

(١) التطبيع والتحييد. وهذا يعني أن الإنسان كائن طبيعي تحركه غرائزه الطبيعية، وأن العالم مادة لا علاقة لها بالقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية أو أية ميعارية[٢] .

فالإنسان عندما ينظر إلى الكون والعالم أنه محايد بدون مرجعية قيمية، ويُحيِّده عن ذاته؛ باعتباره لا يحوي غرضًا، ولا غاية، ولا هدفًا.

(٢) التعاقدية، والحوسلة، والتكنوقراطية[٣].

والتعاقدية تعني: أن تكون العلاقات بين البشر خاضعة للتعاقد والتفاوض بينهم، لا يعنيها الروابط الإنسانية كالقرابة والتراحم[٤].

والحوسلة منحوتة من عبارة: "تحويل الشيء إلى وسيلة"؛ أي تحويل العلاقات التراحمية بين البشر إلى تعاقد تجريدي، نحو المادة كمبدأ واحد[٥] .

---

(١) المرجع نفسه، ١/١٢٤.

(٢) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ١٣٠

(٣) لم ترَ الباحثة ضرورة لتعريف هذه المصطلحات طالما قد شرحها المسيري في ثنايا حديثة فاتضح معناها.

(٤) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/١٣١

(٥) المرجع السابق، ١/١٣٢

والتكنوقراط هو إدارة الخبراء والفنيين، التي تؤمن بقدرات العلم على حل مشاكل الإنسان؛ دون الرجوع إلى مرجعية فكرية وفلسفية[١] .

وهذه المصطلحات تعني بالجملة: التخلي عن الالتزام القيمي والأخلاقي، والتحرر من إطار الهوية الدينية[٢].

(٣) العقل الأداتي.

فالعقل الأداتي: هو الذي يلتزم بالمستوى الشكلي دون هدف أو غاية؛ دون تساؤل عن المضمون والغايات؛ مما يعني أنه العقل الذي يحدد غاياته ويتحرك بنزوع مادي[٣].

بينما العقل النقدي: هو القادر على إدراك الحقيقة الكلية والغاية من الوجود الإنساني[٤].

فالعقل الأداتي يُشكِّل حركة ترى "إمكانية السيطرة النهائية من خلال تجريدها من خصائصها الضرورية: قداستها، حرمتها، أسرارها"[٥] .

(٤) التسلع، والتوثن، والتشيؤ.

وهذا يعني تحوُّل العلاقات بين البشر باعتبارهم أشياء أشبه بالسلع، بعيدًا عن خصوصيته الإنسانية، وهو ما يعنيه مصطلح التوثن: الذي يتصور السلعة شيئًا مستقلًا، وتتحكم بالإنسان ولو كان مُنتجًا لها[٦].

وهذا ما يشترك مع العلمانية بهذه الخاصية؛ التي تتجاوز الإنسان، وترى الأشياء مرجعية نهائية فوق الإنسان. مما تعني أن الإنسان يُجيِّد إنسانية، ويتخلى عن قدسيته أمام الوحدة المادية.

(٥) الاغتراب، والتنميط.

---

(١) المرجع نفسه، ١٣٣/١

(٢) وهذا يعني إدراك العلمانية للرباط الوثيق بين الدين والقيم والأخلاق.

(٣) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١٣٤/١.

(٤) المرجع السابق، ١٣٩/١.

(٥) المرجع نفسه، ١٣٦/١.

(٦) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١٤١/١

يشير مصطلح الاغتراب إلى "غربة الإنسان عن جوهره، وخروجه من المقام الذي ينبغي أن يكون فيه"(١) .

والتنميط؛ هو لون من روتين الحياة التي تجعل الإنسان آلة وأداة مفرغة من أحلامه ورغباته وتطلعاته ورؤيته لنفسه وأنماط وسلوكه(٢) .

كل هذه المصطلحات السابقة تصف ملامح "الحداثة الغربية"، وليست مصطلحات بريئة محايدة، فهي معاني تُضاف إلى "العلمانية الشاملة".

(٦) اللامعيارية، وأزمة المعنى، والعدمية:

هذه الإشكالية أقرب وصفٍ للعلمانية الشاملة، وتنطوي على الحداثة بعمقها النفسي والفكري.

يقول الدكتور المسيري في اللامعيارية؛ أنها: "تعني فقدان المعايير، وغياب أي اتفاق جوهري أو إجماع بخصوص شأن من الشؤون في المجتمع الحديث الذي تتآكل فيه القيم والتقاليد"(٣) .

ويعبر عن إشكالية هذا المصطلح بأنه يجعل البشرية فريسة لمرض التطلع اللامتناهي.

و"اللامعيارية" تأخذ بالإنسان إلى "أزمة اللامعنى"، وتتصاعد إلى "العدمية"؛ حتى يكتشف الفرد تفاهة أحلامه، ودونية المثل الأعلى الذي يسعى لتحقيقه، طالما يقوم الإنسان الغربي بقمع إنسانيته خلف أوهام الفردوس الأرضي، ويظن أنه سيحقق السعادة؛ حتى يكتشف أنه ثمة فراغًا في حياته، وأنه لا يمارش أي إشباع روحي في جوهره الإنساني(٤) .

ويقول: "ورغم كل هذا يشعر هذا الإنسان أنه يفتقر إلى شيءٍ ما أساسي؛ هذا الشيء هو المعنى الكلي النهائي لحياته؛ ومن ثم لا معنى لها... أي أنها أزمة الإنسان باعتباره إنسانًا"(٥).

---

(١) المرجع السابق، ١٤٢/١.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ١/ ١٤٣.

(٣) نفسه، ١٧١/١.

(٤) ينظر: المرجع نفسه، ١٧٢/١ ـ ١٧٣

(٥) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١٧٣/١

ويرى المسيري أن أوضح تعبير لهذا الفراغ الروحي بأزمة المعنى؛ "هو تزايد أنواع الجرائم التي لا علاقة لها بالحاجة الاقتصادية؛ فتزايد تعاطي المخدرات وجرائم مثل الاغتصاب والقتل...هي جرائم آخذة في التزايد حسب منحنى متصاعد"(١).

ويؤكد أنه ليس ثمت معنى لـ "العدمية" إلا "غياب أي أساس لفكرة الحقيقة، وما نصل إليه من معرفة لا قيمة لها، وهذا يعني إنكار القيم الأخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية"(٢).

وهذا التفكير العدمي تسقط لديه كل الثنائيات: الحقيقة وغير الحقيقة، والصواب والخطأ، والخير والشر، والحلال والحرام، والمباح وغيره المباح، فكلها عنده سواء بلا معايير ولا تمايز ولا معاني، وهذه تفاهة تتلاشى معها روح الإنسانية، وتذوب لذة الحقيقة والمعرفة، وتفقد شعور السعادة بالخير والأخلاق.

(٧) الاستنارة المظلمة:

أوجز الدكتور المسيري مفهوم الاستنارة هنا؛ بأنها لا تعني أكثر من دعوى قُدرة العقل على الوصول إلى المعرفة التي تنير له كل شيء في فهم الحياة. بزعمهم أن العالم يحوي داخله ما يكفي لتفسيره(٣).

ثم يقول المسيري: "لذا؛ جعل هؤلاء الفلاسفة همَّهم توجيه الضربات للإنسان، وتحطيم صورته المثالية عن نفسه؛ حتى لا يستمد أي عزاء زائف من وهْم المركزية والمرجعية الإنسانية"(٤).

ويقول: "أي أنهم ببساطة شديدة؛ ينزعون الخصوصية والقداسة عن الإنسان، ويردونه إلى قوانين الطبيعة/ المادة"(٥).

ونقل عبارة بعض الفلاسفة الغربيين الناقدين لهذه المدخلات المظلمة؛ بأنها: "حالة من حرب الجميع على الجميع؛ فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان"(١).

---

(١) المرجع السابق، ١/١٧٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ١/١٧٥.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ١/١٨١

(٤) نفسه، ١/١٨٢.

(٥) نفسه، ١/١٨٣

المطلب الثالث: تفكيك مصطلحات وظواهر العلمانية

ما سبق من دراسة المصطلحات والمفردات الرديفة لـ "العلمانية"؛ هي أوصاف لعملية التحديث العلماني للمجتمع الإنساني من أجل تفكيكه عن خصوصيته؛ ومن ثمَّ تركيبه بعناصر مادية تخرجه عن كونه إنسانًا روحيًا ينزع بالقيم والأخلاق.

يتحدث الدكتور المسيري عن التفكيك، قائلًا: "فإن التفكيك أداة تحليلية تستخدم في اكتشاف البنية الكامنة لأي نظام فكري أو فلسفي، ولا تحمل أي مضمون أيديولوجي"(٢).

وهو بهذا التحليل التفكيكي يذهب إلى "أن عملية الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة هي في جوهرها عملية تفكيك للإنسان، فيلغي الحيز الإنساني ولا يبقى سوى الحيز الطبيعي المادي، فبدلًا من أن يكون الإنسان كائنًا مركبًا متكاملًا؛ فإنه يصبح الإنسان الطبيعي أو الإنسان الوظيفي"(٣) .

فالمطلقات العلمانية تتعامل مع الإنسان كعنصر مادي بنموذج الطبيعة؛ باعتبار أنه مجموعة من الدوافع الطبيعية المادية. وهذا التفكيك غايته إسقاط السمات الجوهرية للإنسان ذاته، وسمات المجتمع الإنساني. وأنشأت حضارة تزيح الإنسان من مركزيتها، لتحل محله المادية، من ثم أصبح الإيمان بالله، أو الهوية الدينية شكلًا من أشكال اغتراب الإنسان جوهره.

وقال المسيري: "وقد عبر "رورتي" عن المعنى نفسه بطريقة فلسفية أعمق؛ حين وصف التحديث في العالم الغربي؛ بأنه مشروع نزع الألوهية أو القداسة عن العالم"(٤) .

فالعلمانية بالفكر الغربي نزعت القدسية عن الدين والضمير والأخلاق، وصارت الشهوة ذات مفهومٍ مقدس، وينظرون إلى أي تفكير قيمي أخلاقي بأنه تفكير ظلامي وخارج العصر.

---

(١) نفسه، ١/١٨٣.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ١٦٢

(٣) المرجع السابق، ١/ ١٦٢

(٤) المرجع نفسه، ١/١٦٧

المطلب الرابع: تمركز فكر العلمانية بين الذات والموضوع

تتمركز العلمانية بأفكارها بين الذات الإنسانية، والموضوعية المادية، وتخلق بينهما صراعًا متتاليًا غير متناهي.

يقول الدكتور المسيري: "بدأ تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة بالفلسفة الإنسانية التي تتمركز حول الإنسان وتضعه بشكل كامل فوق الطبيعة، بل هو سيده الذي لا منازع له وهو مرجعية الكون النهائية... حُرًا تمامًا من قيود الحضارة والتاريخ والأخلاق... رافضًا أية رغبات أو ثوابت أو مطلقات تتجاوز عالمه المادي وحدود عقله"[(١)] .

ولكن أشار المسيري إلى التحول لدى العلمانية الشاملة؛ على نقيض هذه فلسفة مركزية الإنسان[(٢)] ، كون "المشروع التحديثي في إطار العلمانية الشاملة هو في جوهره مشروع تفكيكي، لا يؤدي إلى تأكيد مركزية الإنسان، وإنما إلى رده إلى ما هو دوه (الطبيعة/ المادة)، وإلغائه تمامًا... فالمعرفة العلمية المادية معرفة موضوعية تنبع من نموذج الطبيعة/ المادة، ولذا فهي ترفض الغائيات الإنسانية"[(٣)] .

وأهم مسألتين ناقشها الدكتور المسيري في تمركز العلمانية، مما يمكن الاستشهاد به؛ هي ما يأتي:

(١) النظرية الأخلاقية:

أضافت العلمانية الشاملة إلى الحضارة الغربية نموذجًا جديدًا من الصراع الأخلاقي بين الأفكار الدينية المختلفة مثل: فكرة التنوير، وفكرة السقوط والخطيئة الأولى، وفكرة النفعية، حتى أجهضت معاني الفضيلة والروح والأخلاق.

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢٦٥/١

(٢) مركزية الإنسان: هو الاعتقاد أن الكائنات البشرية هي الكيان أكثر أهمية في الكون، وتفسر الكون بمعاني القيم والتجارب الإنسانية. ينظر: موقع ويكيبيديا.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢٦٩/١

وهو الأمر الذي يحلله المسيري، ضمن العلمانية الشاملة: "ولهذا فإن المجتمع عليه أن يُرغم الفرد على أن ينشد السعادة التي يقررها له المجتمع، ومن ثَمّ أصبحت القيمة مسألة اجتماعية؛ أي أن المجتمع هو الذي ينتج القيمة، وليست القيمة هي التي تحكم المجتمع"(١) .

فنجحت العلمانية الشاملة في: تحرير المجتمع من هيمنة علماء الدين، وإخضاعه لعلماء النفس والاجتماع، واختطفت وجدانه في وسائل الإعلام خلف اللذة والإباحية، وتقييم الإنسان بوظيفته بعيدًا عن المسؤولية الأخلاقية(٢).

يلخص الدكتور المسيري تفسير العلمانية للنظرية الأخلاقية بالواحدية المادية؛ لأن "الشر هو انحراف عن الطبيعة وخروج عن حال الطبيعة"(٣).

(٢) التمركز حول الأنثى:

رأى الدكتور المسيري أن يضع مصطلحًا أوسع لدراسة التمركز حول الأنثى، وأسماه: "نظرية الحقوق الجديدة"، باعتبارها لونًا من تجليات العلمانية الشاملة في عصر ما بعد الحداثة؛ التي تعتقد ـ حسب قوله ـ: "سيادة الأشياء، وإنكار المركز، والمقدرة على التجاوز، وسقوط الثوابت والكليات في قبضة الصيرورة"(٤)، إذ لا يعنيها جوهر الإنسان.

وقد عرف المسيري هذه الحركة بـ "حركة الفيمينزم"؛ الذي كان قديمًا يعبر عن "تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها". ويستدرك بأن الحضارة الغربية تغيرت اليوم عما قبل الحداثة، من خلال: "إعادة صياغة الإنسان ذاته، في ضوء معايير المنفعة المادية والجدوى الاقتصادية"(٥).

---

(١) المرجع السابق، ٣١٦/١

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ٣١٦/١.

(٣) نفسه، ٣١٧/١.

(٤) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٣٢١/١

(٥) المرجع السابق، ٣٢٤/١.

ويسرد أمثلة لهيمنة القيم البرّانية المادية؛ "مثل: الكفاءة في العمل في الحياة العامة، مع إهمال الحياة الخاصة، والاهتمام بدور المرأة العاملة (البرّانية) مع إهمال دور المرأة الأم (الجوّانية)، والاهتمام بالإنتاجية على حساب قيم تماسك الأسرة وضرورة توفير الطمأنينة للأطفال"(١).

ويقول: "فإن كانت حركة تحرير المرأة تدور حول قضية تحقيق العدالة للمرأة؛ فإن حركة التمركز حول الأنثى تقف على النقيض من ذلك؛ فهي تصدر عن مفهوم صراعي للعالم حيث تتمركز الأنثى على ذاتها، ويتمركز الرجل هو الآخر على ذاته، ويصبح تاريخ الحضارة البشرية هو تاريخ الصراع بين الرجل والمرأة"(٢).

كل هذا يجري في مرحلة الواحدية المادية، والتفكيك القيمي؛ تحت غطاء فكري واسع؛ يطغى على وجدان المرأة؛ من خلال مستحضرات التجميل، وصناعة الأزياء، والنجومية الفنية، والتفنن في عروض أعضاء جسدها، ومتعة الترفيه والإباحية؛ ويتم سحبها من عالم الحياة الخاصة، والطمأنينة؛ إلى عالم السوق والقلق والاستهلاك(٣) .

المطلب الخامس: الجذور الفكرية للعلمانية، وتجلياتها في الفكر الغربي

لم تنشأ العلمانية نشأة اعتباطية؛ وإنما هي نزعة جينية كامنة في الإنسان الغربي، نحو الرغبة في الذوبان بمبدأ طبيعي مادي واحد. وهو يمكن قراءته من تحليل الدكتور المسيري كما يمكن تلخيصه في العناصر الآتية.

أولًا: الحلولية، ووحدة الوجود:

من الواضح أن الدكتور المسيري بذل أقصى ما يمكن في الاستقراء الفكري لهذا الجذر "الحلولي ووحدة الوجود"، وأن العقل الغربي القديم "نظر إلى العالم باعتباره جوهرًا واحدًا يسميه البعض "الإله"، ويسميه البعض الآخر "الطبيعة"، وأنه في واقع الأمر الشيء نفسه، وبذلك سادت الرؤية الواحدية المادية فعلًا، الروحية اسمًا"(٤).

---

(١) المرجع نفسه، ٣٢٥/١

(٢) نفسه، ٣٢٧/١

(٣) نفسه، ٣٣٥/١

(٤) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١٩٩/١.

ومع انتشار المسيحية يرى المسيري أنها "تدور حول فكرة الإله المتجسد، وحلول اللاهوت في الناسوت حين ينزل الإله إلى الأرض في هيئة ابن الإله"(١).

بمعنى أنه يصير إنسانًا، ويتمثل في الكنيسة التي تكون الوسيط بين الخالق والمخلوقات.

ثانيًا: الكمون المادي المطلق:

من خلال فلسفة الحلول ووحدة الوجود؛ يستنتج الدكتور المسيري علاقة الفكر الغربي بالطبيعة والمادة؛ وأنها أصبحت جذرية واحدية مادية. بمعنى أنها "تستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية كامنة في المادة، ولذا فهي مرجعية نهائية، مركز مطلق أو مركز يشكل مصدر التماسك في الكون والمجتمع، ويشكل أساس وحدته"(٢).

ومن هنا يرى المسيري بأن المطلق العلماني الكامن هو وحده المطلق النهائي والثابت، وما عداه في العالم هو المتغير.

ثم يقول: "والحضارة العلمانية الغربية بهذا المعنى؛ حضارة فريدة تمامًا، فلأول مرة في تاريخ الإنسان يُلغى الهدف والغاية، وهذا هو الإدراك الأساسي الكامن وراء عالم ما بعد الحداثة"(٣).

ويتضح أن المادية هي المعيار الأساس للعلمنة، وإحدى الركائز المهمة لتسويغ النظام السياسي الاجتماعي من خلال تكليف الدولة بمهمة تحقيق هذه الغاية(٤).

ثالثًا: النمذجة للإنسان المادي:

أشار الدكتور المسيري إلى ثلاثة نماذج علمانية، هي تجليات للعلمانية الشاملة:

---

(١) المرجع السابق، ١/٢٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ١/١٣٧.

(٣) نفسه، ١/٢٤٢

(٤) الفلسفة السياسية: دراسة مقارنة بين نظرية التوحيد ونظرية الوجود الغربية أحمد داود أوغلو، إسلامية المعرفة، ترجمة: إبراهيم البيومي، عدد١٦، ١٩٩٩م، ص ٥٩.

(١) الإنسان الاقتصادي/ السنغافوري: "يتحول الإنسان إلى وحدة اقتصادية للإنتاج والاستهلاك والبيع والشراء، وينظر الناس إلى أنفسهم كوحدات إنتاجية استهلاكية"[١] .

(٢) الإنسان الجسماني/ التايلاندي: "أصبح قطاع البغاء فيه من أهم مصادر الدخل القومي، وتكوَّن فيه لوبي قوي من ملوك البغاء والمخدرات... حيث يتحول الإنسان تمامًا إلى أداة للمتعة"[٢] .

(٣) الإنسان المادي المحض/ النازي الصهيوني: "فالمجتمع النازي كان يعتبر الإنسان كائنًا طبيعيًا، ومرجعيته الأخلاقية إرادة القوة، ولهذا نظر إلى البشر جميعًا باعتبارهم مادة يمكن توظيفها، وتم تقسيم البشر من منظور مادي"[٣].

رابعًا: مبدأ الترانسفير:

الترانسفير يعني الانتقال والتوطين، وهو يعني حركة نقل الإنسان اجتماعيًا ووجدانيًا أو فكريًا ومعرفيًا.

يقول المسيري: "وقد تبدت عقلية الترانسفير في الحل الامبريالي لمشكلات أوربا؛ وكان أول هذه العمليات نقل الساخطين سياسيًا ودينيًا إلى أمريكا"[٤].

ثم عدد مظاهر التوطين الاجتماعي والسياسي، مثل: نقل الأفارقة إلى الأمريكيتين لتحويلهم إلى وظيفة تسخيرية رخيصة، ونقل الهنود الحمر من مواطنهم إلى عالم آخر، ونقل الفائض البشري من أوروبا إلى جيوب استيطانية في العالم الآخر؛ كالمسألة اليهودية وتوطينها في فلسطين[٥].

وثمت توطين وجداني ينقله إلى حالة إنسانية أخرى؛ "يختار الممارسات أو الهوية الجنسية التي يميل لها"[٦].

---

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق، ١/٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) المرجع السابق نفسه، ١/٢٤٧.

(٤) المرجع نفسه، ١/٢٥٢

(٥) ينظر: المرجع نفسه، ١/٢٥٢

(٦) نفسه، ١/٢٥٧ ـ ٢٥٨،

فإذا كان المرء ذكرًا فيمكنه أن يختار الحالة الجنسية التي يتعايش معها بأي ذوق يناسبه بلا تمايز، في عملية مطلقة من إسقاط الأصل والذات، وإنكار الجوهر لفرط الميول الفردي، وتدمير أنماط الأسرة، واختفاء ثنائية الرجل والمرأة، الذكر والأنثى، الزوج والصديق(١).

وتوطين المعرفة بالانتقال إلى الحداثة وما بعد الحداثة، وما يُطلق عليه أنصار الحداثة بـ "رقص الدوالّ" حيث لا تستقر المعرفة على ثابت متميز، حيث ينزلق الجميع في إيديولوجيا النظام العالمي الجديد؛ كما بشر بذلك وزير خارجية إسرائيل(٢).

المبحث الثاني

استعادة بناء مفهوم العلمانية

أولًا: حقيقة العلمانية:

انطلق الدكتور المسيري في دراسته للعلمانية من منظور فلسفي، واستكشاف تفكيكي؛ مفاده أن الظاهرة الإنسانية تتشكل من صورتين: البنية الظاهرة، والبنية الكامنة. وعادةً ما تكون البنية الظاهرة تجليًا للبنية الكامنة. ورأى أن ينظر إليهما باعتبارهما دائرتين متداخلتين: الدائرة الجزئية، والدائرة الشاملة؛ تحيط بالأولى وتشملها.

ويعتقد المسيري أنه لن يعالج استعادة بناء مفهوم العلمانية من منظور تطبيق الشريعة، أو فصل الدين عن الدولة؛ معتبرًا أن هذا التفكير أضرَّ ضررًا بالغًا في غموض التعريف. وإنما يدرسها من منظور تركيبي وشمولي بكل الظواهر الحداثية والإمبريالية والعولمة، وكل الأبعاد الفكرية التي تكمن وراء العلمانية؛ في رؤيتها للإنسان والطبيعة كنموذج فعَّال بمرجعيتها النهائية، سواء إلحادية، أو معادية، أو محايدة للإله ومطلقات الإيمان(٣) .

---

(١) ينظر: نفسه، ٢٥٨/١

(٢) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢٦٠/١ . ٢٦١.

(٣) ينظر: العلمانية تحت المجهر، د. عبد الوهاب المسيري، د. عزيز عظمة، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ص ١٥.

واعتمد المسيري تقسيم العلمانية إلى نوعين:

النوع الأول: العلمانية الجزئية:

"العلمانية الجزئية" هي رؤية جزئية للواقع تنطبق على عالم السياسة، وربما على عالم الاقتصاد، ويُعبّر عنها كثيرًا بفصل الكنيسة عن الدولة. والكنيسة هنا تعني "المؤسسات الكهنوتية" عمومًا، أما الدولة فهي تعني "مؤسسات الدولة المختلفة" ويُوسِّع البعض هذا التعريف ليعني فصل الدين (والدين وحده) عن الدولة بمعنى الحياة العامة في بعض نواحيها. ويسمّي هذه الصيغة "علمانية جزئية" لسببين:

١. إن الدولة التي يشير إليها التعريف هي دولة صغيرة لم تكن قد تغوّلت بعد، ولم تكن قد طوّرت مؤسساتها التربوية والأمنية المختلفة التي تُمكنّها من محاصرة المواطن أينما كان، ولذا فقد كانت له رقعة واسعة يتحرك فيها ويديرها حسب منظومته القيمية.

٢. إنها تلزم الصمت تمامًا بشأن المرجعية الأخلاقية والأبعاد الكلية والنهائية للمجتمع ولسلوك الفرد في حياته الخاصة وفي كثير من جوانب حياته العامة.

كل هذا يعني أن العلمانية الجزئية تترك حيزًا واسعًا للقيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة، بل وللقيم الدينية ما دامت لا تتدخل في عالم السياسة (بالمعنى المحدد)، أي أنها صيغة لا تسقط في النسبية أو العدمية. وهذه الصيغة هي الشائعة بين عامة الناس في الشرق والغرب، بل وبين الكثير من المفكرين العلمانيين، ويمكن تسميتها "العلمانية الأخلاقية أو الإنسانية" (وهناك بعض المفكرين الإسلاميين يرون أن هذه العلمانية الجزئية الأخلاقية لا تتناقض بأية حال والمنظومة الدينية الإسلامية، وأنهما يمكنهما التجاور والتعايش.. بل والتكامل)[١].

النوع الثاني: العلمانية الشاملة:

وأطلق المسيري عليها أيضًا "العلمانية الطبيعية/ المادية"، أو "العلمانية العدمية"، وهي رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل فقط الدين عن الدولة، وعن بعض جوانب الحياة العامة، وإنما تفصل كل القيم

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/٤٧١.

الدينية والأخلاقية والإنسانية عن كل جوانب الحياة العامة في بادئ الأمر، ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته، إلى أن يتم نزع القداسة تمامًا عن العالم (الإنسان والطبيعة)[١].

مما يعني أن المسير يفكر في هذا المفهوم تفكيرًا بنيويًا على وصف تقاطعاته مع مفاهيم أخرى من حيث التقارب الفلسفي، ومن حيث حركة المفهوم في الحياة[٢] .

وعلى هذا يرى المسيري أن العلمانية الجزئية يمكن تكون مقبولة، وأنها لا تتعارض مع التدين، وإنه يمكن التعايش والتجاور معًا؛ قائلًا:

"إنه لا تعارض في واقع الأمر بين العلمانية والتدين، وأن بإمكانهما التعايش معًا، وهو أمر ممكن بالفعل إذا كان المعنى هو مجرد تمايز بعض جوانب المجال السياسية والاقتصادي عن المجال الديني، وإبعاد رجال الدين والكهنوت عن مؤسسات صنع القرار السياسي، وأعتقد أن كثيرًا ممن يتصورون أنهم أعداء للعلمانية سيقبلون هذا الفصل أو التمايز، إذا ما تأكدوا أن العلمانية (فصل الدين عن الدولة) مسألة تنطبق على الآليات والإجراءات الفنية وحسب، ولا تنطبق بأية حال على القيمة الحاكمة والمرجعية النهائية للمجتمع والدولة، أي أنه من الممكن أن يقبلوا فصل بعض جوانب المجال السياسي والاقتصادي —بل بعض جوانب السلوك الإنساني– عن الدين، طالما أن المرجعية النهائية هي مرجعية متجاوزة للدنيا وللرؤية النفعية النسبية المادية[٣].

وفي سعي الدكتور المسيري لاستعادة مفهوم العلمانية؛ يعمل على نحت بعض المصطلحات التي يرى أن لها قيمة تحليلية، وتفسيرية، كالمطلق العلماني، والنموذج العلماني، والمتتالية النماذجية. ويتتبع الأنماط الفكرية المتشابكة حول المركز الذي يتجاوز كل الأجزاء ولا يتجاوزه شيء؛ مما يمثل المبدأ الواحد[٤] الأساسي، والمرجعية النهائية.

---

(١) المرجع السابق، ٤٧٢/٢.

(٢) سؤال العلمنة، ربوح البشير، إسلامية المعرفة، العدد ٧٦، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ٢٠١٤م، ص ١١٨.

(٣) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ٤ /٢١١، والعلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ١٨-١٩.

(٤) المبدأ الواحد: هو مصدر وحدة الكون وتماسكه، وهو القوة الدافعة له التي تضبط وجوده، وهو قوة لا تتجزأ ولا يتجاوزها شيء. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٤٥٥/٢.

ويكشف المسيري أن المتتالية العلمانية قد انتهت إلى جعل الإنسان بمثابة: "المطلق العلماني"، و"مركز الكون"، و"المرجعية النهائية المادية". وأن حركة العلمنة ليست فعلًا واعيًا، أو تعبيرًا معلنًا، أو واضحًا بالضرورة. بقدر ما هي حركة خفية، فلا تعلن عن نفسها، وهي كامنة في كل المجتمعات(١).

ثانيًا: حقيقة علاقة الدين بالدولة:

يرى الدكتور المسيري أن "عملية الفصل بين الديني والسياسي واقعي في المجتمعات المركبة"؛ وذلك أن المؤسسة الدينية لا يمكن أن تتوحد بالمؤسسة السياسية في أي تركيب سياسي وحضاري مركب"، لأن حقيقة كل دولة بالتعريف هي دولة تاريخية مدنية وإن اتخذت الدين مصدرًا شرعيًا لها، كون الدولة في التاريخ كانت علاقتها مع الدين متراوحة بين التوافق والتنازع تبعًا للشروط التاريخية والاجتماعية التي انتظمت فيها هذه العلاقة(٢) .

وانطلق المسيري في تحديد علاقة الدين بالدولة من إدراك ثلاث قضايا أساسية:

١. مركزية الدين: إذ يحتل الدين مكانة مركزية في الاجتماع المدني، بل في قلب الحياة الاجتماعية(٣) .

٢. شمولية الدين: باعتبار أن الدين يستوعب مختلف النشاطات الروحية والزمنية معًا، وأنه ينغمس في شتى مناحي الحياة، مع تمايز الديني عن الدنيوي بالضرورة.

٣. ركيزة الدولة. حيث يظل الدين هو الفاعل الحقيقي للسياسة؛ مهما بلغت أهمية الدولة. فالسياسة هي رعاية المصالح الدنيوية لم تكن بالدرجة الأولى من أعمال الدولة. لقد كان الدين بتشريعاته قانون ثابت فيها. وعمل الفقهاء عل تطويره لتكوين المشروعية العامة للجماعة دولة وشعبًا(٤) .

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/٢٣٧.

(٢) العلمانية تحت المجهر، ص٤٨

(٣) المرجع السابق، ص١٥

(٤) العلمانية تحت المجهر، ص١٦.

المبحث الثالث

عمليات العلمنة الشاملة

المطلب الأول: علمنة الفكر

تناول الدكتور المسيري بعض الأفكار والنظريات التي تشكل أهم آليات علمنة الفكر، كالتالي:

(١) الربوبية (الدين الطبيعي): الُّروبوبية: ترجمة لكلمة "ديزم Deism" الإنجليزية المشتقة من الكلمة اللاتينية "ديوس Dues"، أي "رب" وهي ترجمة للكلمة اليونانية "ثيوس Theos". ومع هذا، فإن كلمة "ثيزم Theism" الإنجليزية تعني "المؤمن بالخالق داخل إطار ديني"، على حين أصبحت "ديزم" تعني "مذهب دين الطبيعة" أو "الدين الطبيعي"[(١)].

ويمكن تلخيص الأفكار الأساسية للدين الطبيعي؛ كما يأتي:

١. ترى الربوبية أن العالم لم يوجد بالصدفة، وأنه لا يوجد منذ القدم وإنما خلقه إله واحد.

٢. يمكن التوصل إلى فكرة الإله الخالق هذه، والإيمان بها، من خلال إعمال العقل وحده والتأمل في قوانين الطبيعة وآلياتها.

٣. عقل الإنسان أداة كافية لإدراك قوانين الطبيعة والتوصل إلى الحقيقة الكامنة فيها، دون حاجة إلى وحي.

٤. يرى الربوبيون أن جوهر كل العقائد واحد، وأن ثمة دينًا واحدًا طبيعيًا في كل الأديان (وذلك صدى لتوازي الخالق والمخلوقات، والعقل والوحي).

٥. مهمة الخالق –حسب رؤية الربوبيين– خلق الكون وحسب، ولكنه لا يتدخل البتة بعد ذلك في شئون هذا الكون، بل إن علاقته بالعالم تعبّر عن نفسها في قوانين طبيعية ثابتة غير متغيرة تحكم المادة، وقد شُبه الخالق بصانع الساعة الذي يصنعها ثم يملؤها ويضبطها ويتركها بعد ذلك وشأنها تدور بكل دقة.

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/٥١.

٦. إن الخالق نفسه، تحوّل من إله، يعتني بالكون ويرعاه، إلى مبدأ أو قانون طبيعي عام وغير شخصي، يشبه قانون الجاذبية أو قوانين الحركة الآلية التي وصفها نيوتن (وهو الذي صوّر الإله كصانع الساعة)، وبذا تم استبعاد الإله والغيب من المنظومة الأخلاقية[١].

كل هذا، فبإمكان المرء أن يؤمن بالخالق إن شاء، كما يمكنه أن يتجاهله إن أراد. فالخالق مجرد مصدر للحركة الآلية ولا علاقة له بالدنيا التي نعيشها، ولا علاقة له بالمعرفة الإنسانية.

ولكل ما تقدم... يصل الربوبيون، عبر درجات متصاعدة من العلمنة، إلى ما يلي:

الدرجة الأولى: الكتب المقدسة خرافات أو إضافات لدين العقل. وهي، حتى لو افترض أنها جاءت من الخالق، مهمتها هداية العامة والجهلاء و"مساعداتهم"، إذ إن النخبة المثقفة يمكنها أن تصل إلى الحقيقة من خلال عقلها دون وحي أو كتب مرسله.

الدرجة الثانية: يفقد البعث أهميته، تمامًا مثل الحياة الآخرة والثواب والعقاب والوحي أو أي عنصر غيبي آخر، فهو إما لا يوجد على الإطلاق، أو هو مجرد أسطورة نافعة لتخويف الناس وحثهم على العمل الصالح.

ومن ثم، تسقط أهمية الشعائر الدينية التي تعبّر في جوهرها عن الإيمان بخالق يتدخل في الكون ويرعاه، كما تعبّر عن حاجة الإنسان لهذا الخالق، ولذا، فإن التدين الحق أيضًا يعبّر عن نفسه في الأعمال الصالحة، لا في إقامة الشعائر.

الدرجة الثالثة: يُستبعد الخالق (والغيب والميتافيزيقا) من النظرية الأخلاقية كذلك، فالإنسان كائن حر عاقل خيّر يهتدي إلى الخير بعقله وبلا وساطة، كما اهتدى إلى الخالق بعقله وبلا وساطة، ولذا، لاتعترف الربوبية بالالتزام الديني كمصدر للسلوك الخلقي، فأخلاق الطبيعة مصدر السلوك الخَيّر والعمل الصالح[٢].

ومما زاد الربوبية جاذبية أنها لا تطالب من يؤمن بها (باعتبارها دين عقل وطبيعة) أن يتنازل عن دينه، فيمكنه أن يحتفظ بانتمائه الديني، على أن يستبعد من عقيدته فكرة الوحي أو المعجزات، ويُبقي على القيم العقلية

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٥٢/٢.

(٢) المرجع السابق، ٥٣/٢ ـ ٥٤.

المجردة منفصلةً تمامًا عن أي غيب، أي منفصلة عن أية نظرية معرفية دينية (بحيث يكون المصدر الوحيد للمعرفة عالم الطبيعة والمادة)، أي أن الربوبية هي في واقع الأمر خطاب ديني أو ديباجات لا علاقة لها بالدين، وتستخدم هذه الديباجات للدفاع عن العقل المادي المحض والرؤية التجريبية المادية. بل إن الربوبية تعيد صياغة الدين القائم (نفسه) على أسس الربوبية[١].

(٢) وحدة العلوم:

قد يكون من الأفضل التعبير عن "وحدة العلوم" بمصطلح "واحدية العلوم" وهي مفهوم أساسي في المناهج البحثية الحديثة؛ يفترض أن ثمة وحدة عامة شاملة تنتظم العلوم كافة (الطبيعية والرياضية والاجتماعية والإنسانية)، باعتبار أن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة لا وجود له خارجها، وأنه لا جوهر مستقلًا له عنها، وباعتبار أن ثمة قانونًا واحدًا (طبيعيًا- ماديًا) يسري على جميع الظواهر الإنسانية والطبيعية، أي أن ثمة واحدية كونية مادية. ومن ثم، يرى دعاة وحدة العلوم أن من الممكن دراسة ظاهرة الإنسان مثلما تُدرس أية ظاهرة أخرى في العالم الطبيعي، كما يمكن أن تُطبق على الإنسان نماذج العلوم الطبيعية[٢].

فالإنسان، بالنسبة لعالم الاقتصاد الذي يتبنى هذا المنهج، مجموعة من الحاجات (الاستهلاكية) التي تُشبع، والقوى التي تتحول إلى طاقة إنتاجية تُوظّف، أي أنه وحدة إنتاجية استهلاكية يمكن تفسيرها في إطار المدخلات والمخرجات[٣].

(٣) الشعب العضوي:

هو الشعب الذي يترابط أعضاؤه ترابُط الأجزاء في الكائن العضوي الواحد، والذي تربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه، و"القومية العضوية" هي شكل القومية التي يعبّر الشعب من خلاله عن نفسه ككيان عضوي

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٥٦/٢.

(٢) المرجع السابق، ٥٦/٢.

(٣) ينظر: المرجع السابق نفسه، ٥٨/٢.

متماسك، يحوي داخله مركزه. فهو مرجعية ذاته، أي أنه يدور في إطار المرجعية الكامنة، والنموذج الكامن وراء هذه الفكرة نموذج عضوي مادي واحد(١).

و"الشعب العضوي" و"القومية العضوية" هما البديل والمقابل العلماني والحلولي الكموني الواحدي(٢)؛ أي: لفكرة "الجماعة الدينية" أو "الأمة" بالمفهوم الديني.

ومفهوم القومية العضوية مفهوم جنيني(٣) تمامً يلغي إرادة الإنسان الفرد وحريته، وقد ظهرت فكرة القومية العضوية في الغرب، خصوصًا في ألمانيا في القرن التاسع عشر، تحت تأثير الفكر المعادي للاستنارة(٤).

(٤) الداروينية الاجتماعية:

من أهم المفاهيم في عملية علمنة الفكر، النظرية الداروينية الاجتماعية، وهي في تصور الدكتور عبد الوهاب المسيري أهم الفلسفات العلمانية الشاملة. والداروينية ترجمة لكلمة "داروينيزم Darwinism" الإنجليزية، والمشتقة من اسم تشارلز داروين، وهي فلسفة واحدية مادية كمونية، تنكر أي مرجعية غير مادية مفارقة، وتستبعد الخالق من المنظومة المعرفية والأخلاقية، وترد العالم بأسره إلى مبدأ مادي واحد كامن في المادة، وتدور في نطاق

(١) نفسه، ٢/٥٨.

(٢) الحلولية الكمونية الواحدية: هي مذهب الحلول أو الكمون القائل بأن كل ما في الكون (الإله والإنسان والطبيعة) مُكون من جوهر واحد، مكتف بذاته، يحتوي مركزه وركيزته الأساسية داخله. ومن ثم ينكر هذا المذهب وجود الحيز الإنساني المستقل، كما ينكر إمكانية التجاوز. وفي إطار الحلولية الكمونية يمكن رد كل الظواهر مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها، إلى مبدأ واحد كامن في العالم، وتُلغى كل الثنائيات، وتسود وحدة الوجود تتسم بالواحدية الصارمة التي تنزع القداسة عن كل الأشياء. ومن ثم تصبح كل الأمور نسبية. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/٤٦٧ – ٤٦٨..

(٣) جنيني: هي نزعة نحو رفض كل الحدود وإزالة المسافة التي تفصل بين الإنسان وما حوله، حتى يصبح كائنًا لا حدود له. وهي رغبة في التخلص من عبء الخصوصية والوعي الإنساني، وهي محاولة للهرب من الواقع الإنساني بكل ما فيه من ثنائيات وتدافع، وخير وشر، وإمكانيات نجاح وإخفاق. أي أنها نزعة للهروب من الحيز الإنساني المركب إلى عالم واحدي أملس بلا حدود. هذا العالم الذي يهرب إليه الإنسان يشبه الرحم، حيث كان يعيش الجنين بلا حدود ولا قيود خارج أي حيز إنساني، لا يفصله فاصل مادي أو معنوي عن رحم أمه. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٧٤-٤٧٥.

(٤) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٦٢.

الصورة المجازية العضوية الآلية للكون، وتجعل الآلية الكبرى للحركة هي الصراع والتقدم اللانهائي باعتبارهما صفة من صفات الوجود الإنساني، أما الغائبة الكبرى فهي البقاء المادي. ويمكن القول بأن الداروينية هي النموذج المعرفي الكامن وراء معظم الفلسفات العلمانية الشاملة، إن لم تكن وراءها جميعًا(١).

ويمكن تلخيص الأفكار الأساسية في الداروينية الاجتماعية على النحو الآتي:

١. ظهرت الأنواع العضوية كافةً من خلال عملية طويلة من التطور، وهي عملية حتمية شاملة تشمل جميع الكائنات (ومنها الإنسان) وكل المجتمعات في كل المراحل التاريخية.

٢. العالم كله في حالة تطور دائم، وهذا التطور يتبع نمطًا واضحًا متكررًا، إلا أنه قد يكون بطيئًا غير ملحوظ أحيانًا، وقد يأخذ شكل طفرة فجائية واضحة أحيانًا أخرى. وتتم عملية التطور من خلال صراع دائم بين الكائنات والأنواع، فالصراع دموي حتمي، وهو صراع جماعي لا فردي.

٣. السبب الذي يؤدي إلى تَغيُّر الأنواع هو الاختيار الطبيعي؛ الذي يؤثر في جماعات الكائنات العضوية ويترك فيها آثارًا مختلفة، والكائن- أو النوع- الذي ينتصر على الكائنات والأنواع الأخرى، ويحقق البقاء المادي لنفسه، يثبت بالتالي أنه أرقى من الأنواع الأخرى، إذ إنه حقق البقاء على حسابها، فبقي هو، بينما كان مصيرها الفناء.

٤. تحقق الكائنات البقاء إما من خلال التكيف مع الواقع، فتتلون بألوانه وتخضع لقوانينه أو من خلال القوة وتأكيد الإرادة (النيتشوية)(٢)، على الواقع، والبقاء من نصيب الأصلح القادر على التكيف والأقوى القادر على فرض إرادته، ومهما كانت آلية البقاء، فلا علاقة لها بأية قيم مطلقة متجاوزة، مثل الأمانة أو الأخلاق أو الجمال، فالبقاء هو القيمة المحورية في المنظومة الداروينية التي تتجاوز الخير والشر والحزن والفرح(٣).

---

(١) المرجع السابق، ٦٢/٢ ـ ٦٣.

(٢) النيتشوية: نسبة إلى فريدريك نيتشه، وهو من أشهر فلاسفة المانيا واهتم في فلسفته بالأديان والأخلاق والثقافة، وتميز بطريقته ونقده الحاد للدين وبإلحاده وأنه على الإنسان أن يحرر عقله من أوهام الدين حسب رأيه، وهو صاحبة فلسفة القوة. من أقواله: "أقوى وأسمى إرادة في الحياة هي إرادة الحرب، إرادة السيطرة". ينظر: ويكبيديا.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٦٤/٢ ـ ٦٥.

فالنوع الذي ينتصر يورث بقية أعضاء النوع الخصائص التي أدت إلى انتصاره (سر بقائه)، أي أن التفوق يصبح عنصرًا وراثيًا، وهذا يعني استحالة وجود مساواة مبدئية بين الأنواع أو بين أعضاء الجنس البشري، ومع تَزايد معدلات التطور، تصبح هناك كائنات أكثر رقيًا من الكائنات الأخرى بحكم بنيتها البيولوجية. ومن ثم، يصبح للتفاوت الثقافي أساس بيولوجي حتمي(١).

ولعله لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الداروينية، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية الشاملة للكون أكثر من الفلسفة الداروينية، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي:

أولًا: رسخت الفلسفة الداروينية أفكار الواحدية المادية التي تذهب إلى أن العالم هو إلا مادة واحدة صدر عنها كل شيء، مادة خالية من الغرض والهدف والغاية، ولا توجد داخلها مطلقات متجاوزة من أي نوع. فالعالم طبيعة، والطبيعة محايدة لا تعرف الخير أو الشر أو القبح أو الجمال، ولا توجد أية ثغرات في الكون، إذ إن المنطق المادي حتمي يشمل كل شيء، ولا توجد ثنائيات في الكون، إذ يُردُّ كل شيء إلى المادة، ويفسَّر كل شيء بالتطور المادي.

ثانيًا: ليس الإنسان إلا جزءًا من هذه الطبيعة وهذه المادة، وقد صدر عنهما من خلال عملية التطور، إذ لا يوجد سوى قانون طبيعي واحد يسري على الإنسان والأشياء، فالوجود الإنساني نفسه يتحقق من خلال الآليات التي يتحقق من خلالها وجود جميع الكائنات الأخرى. وهو وجود مؤقت تمامًا مثل مكانته في قمة سلم التطور، فهو حتمًا سيفقد مكانته هذه من خلال سلسلة التطور التي دفعته إلى القمة(٢).

وهذا يعني أن القانون الأخلاقي، وكل القوانين، هي قوانين مؤقتة نسبية، ترتبط بحلقة التطور التي أفرزتها، ولذا يتم الاحتفاظ بالقوانين مادامت تخدم المرحلة، ومن ثم، فإن الأخلاق المطلقة تقف ضد التقدم العقلاني المادي الرشيد، ولا سيما إذا كانت هذه الأخلاق أخلاقًا دينية تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة إلى الإشفاق عليه والعناية به. وهذا يعني أن كل الأمور نسبية تمامًا، ولا توجد أية مطلقات. ومن هنا يمكن القول بأن

(١) المرجع السابق، ٢/٦٥.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/٦٥.

النظرية الدراوينية هي الأساس العلمي للفكر النسبي، وإذا كان التطور يتم أحيانًا عن طريق الصدفة، وتحدده الحوادث العارضة فمن الممكن القول بأن النظرية الداروينية هي أساس الفكر العبثي أيضًا[١].

لا يمكن تفسير سلوك الإنسان ووجوده إلا من خلال النماذج الطبيعية المادية، ومن هنا تظهر حتمية وحدة العلوم، وإذا كان للظاهرة تاريخ، فهو تاريخ مادي يمكن دراسته من خلال دراسة بنية الظاهرة المادية[٢].

رغم شمولية الواحدية المادية[٣] في النظام الدارويني فإن هناك ثنائيات صلبه، مثل ثنائيات: الإنسان والطبيعة، والأقوياء والضعفاء، والأثرياء والفقراء، والأسياد والعبيد، ولكن هذه الثنائيات يحسمها شيء واحد وهو الصراع والقوة، فمن يقدر على أن يصرع الآخر هو الأقوى والأبقى، ومن يخفق في ذلك هو الأضعف ومصيره إلى الفناء[٤].

رغم الواحدية المادية التي تَصدُر عنها الداروينية، ورغم رفضها أن تكون أية نقطه متجاوزة للمادة مصدرًا للحركة، ورغم أنها تفترض أنه لا يوجد أي مخطط إلهي وراء الكون- إلا أنها مع هذا كله تفترض وجود غائية طبيعية كالتطور، باعتباره حركة من نقطة أدنى إلى نقطة أعلى ومن التجانس البسيط إلى اللاتجانس المركب، وهي حركة حتمية تمامًا مثل التقدم الحتمي الذي تفترضه معظم الأيدولوجيات العلمانية الشاملة[٥].

المطلب الثاني: علمنة الرؤية

يكرر الدكتور المسيري؛ "أن العلمانية الشاملة قد لا تكون إلحادية، أو معادية للإنسان على مستوى القول والنموذج المعلن (فهي لا تنكر وجود الخالق أو مركزية الإنسان في الكون أو القيم المطلقة، الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية، بشكل صريح ومباشر)، ولكنها على المستوى النماذجي الفعّال، ومستوى المرجعية النهائية؛ تستبعد

(١) المرجع السابق، ٢/٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ٢/٦٥.

(٣) الواحدية المادية: هي فكرة عودة الوجود إلى المادة وحدها. ينظر: موقع الانطولوجيا العربية.

(٤) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/٦٦.

(٥) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/٦٧.

الإله، وأية مطلقات، من عملية الحصول على المعرفة ومن عملية صياغة المنظومات الأخلاقية، كما تستبعد الإنسان من مركز الكون بشراسة، وتنكر عليه مركزيته وحريته"[١].

وفي هذا تتجسد علمنة الرؤية؛ حول النقاط التالية:

(١) العلمنة الشاملة للإله، والطبيعة، والإنسان:

تبدأ عملية العلمنة الشاملة للرؤية بعلمنة رؤية الإنسان للكون وعناصرها الثلاثة: الإله والطبيعة والإنسان.

أولًا: علمنة الإله:

يدور الإيمان الديني الحق حول الإيمان بأن ثمة إلهًا خالقًا للكون هو مركز العالم (الإنسان والطبيعة) وهو مركز مفارق له. وتأخذ العلمنة الشاملة لمفهوم الإله عدة أشكال ودرجات:

الشكل الأول: يتجلى الخالق في الطبيعة (أو التاريخ أو الإنسان) تجليًا كاملًا، ولذا فهو يتجاوزها، ولكنه في الوقت نفسه يكاد يكون جزءًا منها مساويًا لها، فهو قوة تسري فيها يمكن فهمها وإدراكها من خلال دراسة قوانين الطبيعة وسنة الكون، ويصبح الخالق ذاته هو الطبيعة وقوانينها، أو شعبًا بعينه، أو التاريخ وقوانينه. وهذه هي نقطة وحدة الوجود المادية[٢]، والواحدية الكونية المادية الكاملة.

الشكل الثاني: أن ينظر إلى الخالق باعتباره خالق العالم الذي خلق العالم وقوانينه وسننه، وجعلها تسير حسب قوانين طبيعة مطردة. فالخالق هو بمنزلة صانع الساعة، صنعها ثم تركها تدور حسب قوانينها الداخلية الآلية الكامنة في المادة[٣].

---

(١) المرجع السابق، ٢/ ١١٨.

(٢) وحدة الوجود المادية أو "الواحدية المادية": هي ذاتها الواحدية الكونية. فهي تُوحِّد الإنسان بالكون مع استبعاد الإله تمامًا، وهذه الرؤية تشكل الإطار المعرفي لكل الأيدولوجيات العلمانية الشاملة الحديثة. وعالم الواحدية المادية يستبعد من منظوماته المعرفية والأخلاقية أي عنصر من عناصر التجاوز (الإله- القيم الإنسانية والأخلاقية... وغيرها)، وفي هذا الإطار تصبح المعرفة مسألة تستند إلى الحواس وحسب، ويصبح العالم الطبيعي هو المصدر الوحيد أو الأساسي للمنظومات المعرفية والأخلافية. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج٢، ص٤٦٤-٤٦٥

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١١٨.

وسواءً تجلى الإله في مخلوقاته حتى يكاد يتوحد معها، أم انسحب من الدنيا تمامًا وتركها وشأنها- فإن هذا يعني تهميش الإله والمرجعية النهائية، وهو ما يعني زوال الثنائية، وسريان القوانين الواحدية المادية، واختفاء الغاية في العالم.

ويقول المسيري: "إن المنظومة المعرفية الغربية المادية الحديثة بدأت بإعلان موت الإله باسم مركزية الإنسان، وانتهت بإعلان موت الإنسان باسم الطبيعة، والحقيقة المادية، وهذه هي الواحدية المادية: أن تصبح كل المخلوقات خاضعة تمامًا لنفس القانون المادي الصارم، وأن يسود منطق الأشياء على الأشياء وعلى الإنسان، وهذا هو حجر الزاوية في المشروع المعرفي الغربي، ثمة قانون واحد وثقافة واحدة وإنسانية واحدة تكتسب وحدتها من كونها جزءًا من النظام الطبيعي، ولذا فإن ثمة نموذجًا واحدًا للتطور، ويلاحظ أن حركة البناء الفكري المادي تتجه دائمًا نحو تصفية الثنائيات التي نجمت عن الثنائية الدينية (الخالق/ المخلوق) وعن الثنائية الهيومانية (الإنسان/ الطبيعة)"[(١)].

ثانيًا: علمنة الطبيعة:

فتأخذ شكل استبعاد الإله والإنسان تدريجيًا من الطبيعة (الكون والعالم والدنيا)، فهي تستبعد الإله باعتباره المركز المتجاوز للكون (فمركز الكون كامن فيه، وهذه هي وحدة الوجود المادية)، كما قد تستبعد الإنسان باعتباره مركز العالم (الذي استخلفه الإله على الأرض) وبذلك تُزال الثنائية وتسود الواحدية، وتستبعد كل الغايات والمرجعيات والقيم الإنسانية والأخلاقية والدينية[(٢)].

وتتم علمنة الطبيعة على مراحل: بدلًا من الإيمان بأن الطبيعة من صنع الإله وأن لها غرضًا وهدفًا، يسود الإيمان بأن الإله يتجلى (أو يتجسد) في الطبيعة، وأن الطبيعة تعبّر عن الإله تعبيرًا شبه كامل، فتصبح الطبيعة

(١) العالم من منظور غربي، د. عبد الوهاب المسيري، منشورات دار الهلال، فبراير ٢٠٠١م، ص: ١٢٩.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١١٩.

موضع عبادة الإنسان وموضع تقديسه، كما هو الحال عند المدافعين عن البيئة (من عبدة الإله جايا Caya، أي الكوكب الأرضي!)[١].

وعليه فيحل الإله في الطبيعة ويتحد بها ويذوب فيها، وبعد ذوبانه فيها يصبح التصور أن العالم بأسره مكون أساسًا من مادة واحد مكتفية بذاتها، تحوي داخلها كل ما يحتاج المرء لتفسيرها، تشكل كلًا واحدًا يتكون من الطبيعة والإنسان، وهي مادة عامة لا قداسة ولا خصوصية لها، ولا أسرار فيها، وليست لها حرمة خاصة، سواء أخذت شكل شجرة أم فراشة أم إنسان. هذه المادة الواحدة خاضعة لقانون طبيعي مادي واحد أو مجموعة من القوانين المادية، وقد تتسم بالتنوع والتعدد المبدئي، ولكنها تتسم أيضًا بالوحدة النهائية وبأنها لا تسمح بوجود ثغرات[٢].

ينجم عن هذا موقفان بشأن علاقة الإنسان بالطبيعة: أن تصبح الطبيعة مادة استعمالية لا قداسة لها، تُوظّف وتُصنّع وتُستهلَك وتُولّد منها الطاقة من أجل تحقيق لذة الإنسان ومنفعته، الأمر الذي يتطلب المزيد من استهلاك مصادر الطبيعة، ويؤدي هذا إلى تلوث البحار والأرض والسماء (موت الطبيعة). فكأن الإله والإنسان والطبيعة يمتزجون ثم يتوحدون تمامًا ليكونّوا وحدة وجود كونية تؤدي إلى موت كوني، أو أن يصبح الإنسان نفسه جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة تابعًا لها، وتصبح هي مرجعيته المادية النهائية[٣].

ثالثًا: علمنة الإنسان:

هي أهم عناصر العلمنة ونقطة البدء الحقيقية في العلمانية الشاملة، فتعني تأكيد مركزيته المطلقة في الكون، وأنه مقياس كل شيء ومرجعية ذاته، ومتمركز حولها. ولكن الإنسان في الوقت نفسه مجرد جزء من النظام الطبيعي المادي الذي لا يمكن تجاوزه، وحدودهما واحدة[٤]. ولذا، تنطبق على الإنسان قوانين الطبيعة والأشياء الأخرى،

(١) المرجع السابق، ٢/ ١١٩.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١١٩- ١٢٠.

(٣) المرجع السابق، ٢/ ١٢٠.

(٤) المرجع نفسه، ٢/ ١٢٠.

وتسري عليه قوانين الواحدية المادية، فلا يوجد قانون للطبيعة وحركة المادة وآخر للإنسان وحركة التاريخ، فالإنسان إن هو إلا كائن طبيعي مادي، ونقطة الاختلاف بين ما هو إنساني وما هو غير إنساني (من المنظور العلماني الشامل) هو اختلاف في الدرجة لا في النوع، وفي الكم لا في الكيف، ومن ثم يتم تفسير الإنسان في جوانبه وأبعاده كافة، بما هو غير إنساني، أي من خلال القوانين المادية والطبيعة العامة التي تسري على الأشياء والظواهر كافة، والمرجعية النهائية لهذا الكائن مرجعية مادية كامنة في المادة(١).

رابعًا: علمنة التدين:

علمنة التدين تأخذ شكلين مختلفين: "يحل الإله في المؤمن، ويصبح من الممكن معرفة الإله؛ من خلال حالة شعورية أو تجربة جمالية، يخوضها الإنسان. أي: أن الإله يصبح أمرًا خاصًا بالقلب والضمير الشخصي (الإنساني)، ويغرق الإنسان في "تمارين صوفية" محاولًا الالتصاق بالخالق والتوحد معه(٢).

وبمعنى آخر: "أن يصبح الخالق قوة متجلية في الطبيعة أو في التاريخ، ثم قوة حالّة في الطبيعة أو التاريخ، ثم يصبح الخالق نفسه هو الطبيعة وقوانينها والتاريخ وقوانينه، الأمر الذي يعني هيمنة المرجعية المادية النهائية، وهي نقطة الواحدية الكونية المادية الكاملة، أو وحدة الوجود، وهي أيضًا النقطة التي يتم الادعاء فيها؛ بأن الإله يُعرف بالعقل وحده، فتظهر اتجاهات دينية ربوبية ترى إمكان الوصول إلى فكرة الإله من خلال دراسة الطبيعة وقوانينها دون حاجة إلى وحي، وتظهر فكرة وحدة الأديان، ومن بعدها ما يسمى "العبادات الجديدة"(٣).

يعني بهذا: سواءً عُرف الإله بالقلب وحسب (على الطريقة الحلولية الواحدية الروحية)(٤)، أم بالعقل والحواس وحسب (على الطريقة الحلولية الواحدية المادية)(١)، وسواء كان الإله حالًا في الإنسان وحسب أم حالًا،

---

(١) نفسه، ٢/ ١٢٠.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢١.

(٣) المرجع السابق، ٢/ ١٢١.

(٤) وحدة الوجود الروحية: يسمى المبدأ الواحد "الإله" ولكنه إله يَحلُّ في مخلوقاته ويمتزج ثم يتوحد معها. فهو إله اسمًا، ولكنه هو الطبيعة – المادة. وقد طوّر هيجل هذه الصياغة فتحدث عن "الروح المطلق" أو "روح التاريخ" فهو يبدو كأنه يتحدث عن أمور روحية مثالية، ولكنه في واقع الأمر يتحدث عن عناصر مادية محسوسة. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٦٨.

في كل من الطبيعة وعقل الإنسان- فإن النسق الديني يفقد فعاليته وينكمش في عالم الذات أو يصبح نسقًا معرفيًا مستقلًا، ويصبح النسق الديني مثل النسق الطبيعي أو العقلي[٢].

وتظهر ألفاظ مثل (الإله في القلب- الإله يعرف بالعقل وحسب- الإله هو الطبيعة)، والخطاب الديني يفقد بُعده المركب المجازي (باعتبار أنه خطاب يتعامل مع عالم الشهادة والغيب، والمحسوس والمجهول، وما نعرف وما لا نعرف)، فتظهر التفسيرات الإشراقية التي تفترض أن المجتهد يعرف المعنى الكامن من خلال عملية تأويل إشراقية، حيث يصبح التفسير مرجعية ذاته دون العودة للمعنى الواضح للنص، أو يصبح معنى النص المقدس قابلًا للاكتشاف بالعودة إلى حوادث التاريخ والاكتشافات العلمية (تفسير الدين بالعلم) [٣].

ومن الأشكال الأخرى الشائعة لعلمنة الدين (في العالم الغربي) ربط الدين بالقومية والإثنية[٤]، بحيث يتدخل القومي والديني والنسبي والمطلق، وتهيمن المرجعية المادية، ويمكن أن يأخذ هذا شكل الكنيسة القومية، أي الكنيسة المقصورة على أتباعها[٥].

المطلب الثالث: علمنة المعرفة

يمكن الحديث عن العلمنة الشاملة للمنظومة المعرفية على النحو التالي:

---

(١) وحدة الوجود المادية: يتم الاستغناء تمامًا عن أية لغة روحية أو مثالية، ويُسمى المبدأ الواحدة "قوانين الطبيعة" أو "القوانين العلمية" أو "القوانين المادية" أو "قانون الحركة" ويكون هذا القانون قانونًا شاملًا يمكن تفسير كل الظواهر- ومن بينها الظاهرة الإنسانية من خلاله. ورغم الاختلاف الظاهر بين وحدة الوجود الروحية والمادية فإن بنيتهما واحدة، إذ تتسمان بالواحدية وبمحو الثنائيات والمقدرة على التجاوز، ووحدة الوجود المادية هي ذاتها العلمانية الشاملة. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٦٨

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٣.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٤.

(٤) الإثنية: "الجماعة الإثنية" هي الجماعة التي لها تراث تاريخي وحضاري مشترك (تاريخ مشترك- لغة- طعام- ملبس ...الخ) يتوارثه أعضاء الجماعة جيلًا بعد جيل، إلى أن يصبح جزءًا عضويًا لا يتجزأ من وجودهم، يميزهم عن الآخرين ويشكل مصدر خصوصيتهم القومية (الإثنية). ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٧٠.

(٥) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٥.

أولًا: يصبح الإنسان مقياس كل شيء، وتصبح ذاته التي تنعكس عليها المعطيات المادية وحدها مصدر المعرفة. والمعرفة- في ظل العلمنة الشاملة- قوة، تهدف إلى فهم العالم والإنسان بهدف السيطرة عليهما والتحكم فيهما وتوظيفهما لصالح من حصل على المعرفة (المعرفة الإمبريالية) [(١)].

ثانيًا: تأخذ المعرفة شكل شواهد مادية وتفاصيل دقيقة، مصدرها الحواس التي تتلقى الإشارات المادية من العالم الخارجي. فمستقر الحقيقة في المجردات الرياضية اللاإنسانية العامة التي يجدر بالإنسان قبولها والإلمام بها والإذعان لها، وصياغة ذاته ومجتمعه وفق هديها[(٢)].

يعني هذا: حينما يصبح الإنسان جزءًا من الطبيعة، فإنه يلتحم بالمجردات اللاإنسانية التي تتجاوز ما هو إنساني ويذعن لها. يمكن توظيف المعرفة في خدمة هدف معين يحدده العلم المادي المنفصل عن القيم والغايات، أو يحدده القائمون على الدولة.

وتتم علمنة المعرفة في الأشكال الآتية:

أولًا: لكي تتم العلمنة الشاملة للنظرية الأخلاقية: بحيث تدور داخل إطار القانون الطبيعي المادي، الذي يوحِّد الإنسان والطبيعة ولا يقبل أية مرجعية غير مادية متجاوزة. والخير والشر، إنما هما وصف لسلوك بعض الناس واستجابتهم الفردية الخاصة لتجارب مختلفة خاصة بهم. وما هو خير هو ما اتفقت الجماعة على تصنيفه كذلك، والشر لا يختلف عن الخير في هذا، فالأخلاق مسألة اتفاق شائع وعرف سائد. ويشيع الإيمان بأن كل القيم الأخلاقية نسبية، ولذا، فهي خاضعة تمامًا للتفاوض. والقيمة الأخلاقية المطلقة، هي تعبير عن الكائن أصبح

(١) المعرفة الإمبريالية: هي النتيجة الحتمية للعلمانية الشاملة التي تنزع القداسة عن العالم وتفصله عن كل القيم الأخلاقية والإنسانية، وتُحوسل الطبيعة والإنسان، وتحاول التحكم فيهما والهيمنة عليهما لصالح الأقوى أو لصالح أي مطلق علماني (الدولة- العرق الأرقى-... الخ). فالعلمانية الشاملة الإمبريالية وجهان لعملة واحدة. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٧٦- ٤٧٧.

(٢) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٥.

مرجعية ذاته، وأن أخلاقياته كامنه فيه، نابعة منه، عائده عليه (هو) بالمنفعة أو اللذة أو البقاء، فهو الذي يفرض الأمر الواقع الذي يخدم صالحه[١].

ثانيًا: تأخذ العلمنة الشاملة للعلوم شكل "التحرير من القيم والغايات الدينية"، حيث يصبح العلم موضع الحلول، مرجعية ذاته، مكتفيًا بذاته، فهو مقولة مطلقة (أي تعبير عن فكرة مطلقة ما، إنسانية أو مادية، كامنة داخله، حالَّه فيه)[٢].

ثالثًا: تتم العلمنة الشاملة لـ "رؤية الإنسان للتاريخ" بحيث يصبح التاريخ بلا هدف، إذ يكتشف الإنسان استحالة وجود مطلق كامن في المادة، أو يكون مجرد حقائق متناثرة لا يربطهما رابط ولا توجد وراءها أية غاية، يسميه أنصار ما بعد الحداثة[٣] "القصة الصغير".

رابعًا: تظهر علمنة التاريخ في الاهتمام الشديد ب "الأنتيكة" وبالآثار القديمة، حيث تصبح موضع قداسة وربما تأليه، وتأخذ شكل تزايد الاهتمام بالتاريخ الغربي ووقائعه المختلفة[٤].

خامسًا: العلمنة الشاملة لـ "اللغة وفلسفة اللغة"؛ وتظهر في محاولة التوصل إلى لغة رشيدة تقترب من لغة الجبر والرياضة، وتتوثق علاقة الدالِّ بالمدلول، بحيث يصبح المجال الدلالي محددًا تمامًا، وتنشأ علاقة صلبة بين الدالِّ والمدلول حيث لا تصلح اللغة كأداة للتواصل[٥].

---

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٥.

(٢) المرجع السابق، ٢/ ١٢٦.

(٣) ما بعد الحداثة: (التحديث والحداثة وما بعد الحداثة) هي مراحل ثلاث في متتالية العلمانية. فالعلمانية ليست جوهرًا ثابتًا يتبدى كله في عالم التاريخ دفعة واحدة، وإنما هي متتالية تتحقق حلقاتها تدريجيًا عبر الزمان، وهذا الانتقال من عالم متماسك فيه معيارية (حتى لو كانت مادية)، إلى عالم مفكك بلا معيارية، هو الانتقال من عصر التحديث (والحداثة) إلى عصر ما بعد الحداثة. ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٤٨٣- ٤٨٤، وينظر العلمانية تحت المجهر، ص٣٢٥- ٣٢٦.

(٤) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٢٦-١٢٧.

(٥) المرجع السابق، ٢/ ١٢٩.

سادسًا: محاولة الوصول إلى لغة محايدة للتعبير عن الأمور الإنسانية لاستبعاد ما هو أخلاقي وغائي ومركب واجتماعي، فالشذوذ الجنسي يصبح "الميل الجنسي"، والبغي تصبح "عاملة الجنس"، واستخدام العنف يسمى "موازين القوى"، والإذعان للعنف يصبح "الواقعية" و"المرونة" و"المقدرة على التكيف"... وهكذا[1].

في العالم العربي تأخذ علمنة اللغة شكل إحلال العاميات التي لا تراث لها ولا ذاكرة محل الفصحى – مستودع التراث والذاكرة التاريخية[2].

المطلب الرابع: علمنة الإعلام والأحلام

الإعلام من أهم آليات نشر النموذج العلماني، ويتم هذا من خلال عدة قنوات، فعالم الإنسان المركب يتحول إلى ذرات متناثرة تتحرك بلا هدف ولا غاية، في حيز لا زمان فيه ولا إنسان ولا مرجعيات متجاوزة، فتتحول الأخبار (على سبيل المثال) إلى حقائق متناثرة لا يربطها رابط، توجد خارج التاريخ، وتصبح مصدر تسلية أساسية، واستجابة لرغبة الإشباع الفوري، وتتحول لغة الصحف إلى لغة برقية توصِّل الحقائق المتناثرة دون تعليق أو تقييم، وتتركز الكفاءة في توصيل أكبر "كم" من الأخبار في أقصر وقت ممكن، ومن هنا يتم اعتماد المذيعة الحسناء، ذات الجاذبية الجنسية، بدلًا من المذيع الأب، موضع الثقة والاحترام[3].

فعلمنة الأحلام والرغبات، هي تعني: علمنة الإنسان من الداخل، "بحيث يستبطن المرء المنظومات العلمانية المعرفية والأخلاقية والمرجعية المادية النهائية، ويقبل الصور المثالية التي رُسمت له ويتحد معها، فيسلك حسب قواعدها بدون تفكير، ويحلم بها أثناء نومه ويتطلع إليها في لحظات استيقاظه، ووسائل الإعلام تبين للإنسان أن السعادة أمر نسبي تمامًا، ولكنها تبث وجدانه أنه قادر على تحقيقها من خلال نمط استهلاكي معين،

(١) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٣١.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ٢/ ١٣٣.

(٣) ينظر: المرجع السابق نفسه، ٢/١٣٣ ـ ١٣٤.

وأنه لا يمكنه إرجاء استهلاك السلع بأية حال (فهي مطالب مادية ملحة. ومن ثم، فإن الإرجاء يؤدي إلى مشكلات نفسية وخيمة!)"[١].

وتتم هذا العلمنة من خلال "إشاعة مجموعة من الصور المجازية التي تجسد رؤية معينة للعالم، فيروج لفكرة أن العالم إله، وأنه دقيق كالساعة، وأن الحاسوب هو المثل الأعلى لحياة الإنسان، وتشاع فكرة أن العالم كالكيان العضوي، وسواء أكان كالآلة أو النبات فهو مكتف بذاته[٢].

المحصلة النهائية لعلمنة الرؤية والأفكار والأحلام هي ظهور الفرد صاحب السيادة الكاملة، مرجعية ذاته، والهدف من الوجود بالنسبة له تحقيق النفع الشخصي وتعظيم المتعة وزيادة اللذة[٣].

يلخصّ الدكتور عبد الوهاب المسيري فلسفة (ما بعد الحداثة) بأنها تجرُّدٌ من العقلانية المادية؛ فلا تعرف البطولة، ولا تعرف المأساة، ولا الملهاة، فلسفة تدرك حتمية التفكيك الكامل والسيولة الشاملة، إذ يتم التوصل إلى أن كل شيء نسبي مادي، وأن الفلسفة الإنسانية وهم، وأن الاستنارة المضيئة حلم وعبث، وأن الواقع في حالة سيولة حركية مثل المادة الأولى، وأن ليس ثمّة ذات إنسانية متماسكة ثابتة، ولا موضع طبيعي مادي ثابت ومتماسك، فهذه كلها مجرد تقاليد لغوية وعادات فكرية وصور مجازية وحتى إن وجُدت الذات ووجد الموضوع فلن يتفاعلا، إذ لا توجد لغة للتواصل أو التفاعل، فالنسق الفلسفي الغربي العلماني يمر في مرحلة عجز كبير في الإجابة عن الأسئلة المصيرية الباعثة على القلق الإنساني بعد إجهاده عبر مسيرة تطوره الحضاري[٤].

المطلب الخامس: علمنة الحياة (المجالات الاجتماعية والإنسانية المختلفة)

تتم العلمنة للحياة في أشكالها المتنوعة، وأغراضها الاجتماعية، على هذا النحو الآتي:

(١) نفسه، ١٣٤/٢.

(٢) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١٣٥/٢- ١٣٦.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ١٣٧/٢- ١٣٨.

(٤) الحداثة وما بعد الحداثة. دار الفكر، سلسلة حوارات لقرن جديد، د. عبد الوهاب المسيري ود. فتحي التريكي، دمشق.٢٠٠٣م.

(١) علمنة الاقتصاد: المطلوب بالعلمنة أن يتحرر النشاط الاقتصادي تمامًا من أية أعباء أخلاقية، ومن أية مرجعية، أو غائية، إنسانية، أو دينية.

وتبتدئ عملية العلمنة الشاملة في عالم السياسة؛ في محاولة فصل الدين والقيم والغايات والمطلقات عن عالم السياسة؛ بحيث يتم الحكم على الظواهر والسياسية بمقاييس سياسية، ومن ثم تنفصل القيمة لا عن الدولة وحسب، وإنما عن المجتمع بأسره، ويصبح أساس حركة المجتمع وإدارته ليس العقيدة الدينية وإنما المرجعية النهائية المادية(١).

(٢) العلمنة للأقليات؛ (وهي قضية من صميم عالم السياسة) التي تأخذ شكل تزايد إحساس الأقلية بأنها مرجعية ذاتها النهائية، فيتزايد إحساسها بأن أعضاء الأغلبية "غير مؤهلين" لفهمها، فكل كيان بشري هو كيان إثني عضوي مكتف بذاته، مرجعية ذاته، موضع الحلول يشير إلى ذاته(٢).

وقد ظهر شكل جديد من علمنة الأقليات وهو اعتبار كل الناس أقلية: فالنساء أقلية، والسود أقلية، والمعاقون أقلية، والشواذ أقلية... وهكذا، وهذا يعني أن المجتمع بأسره يصبح مجموعة من الأوليات.

(٣) علمنة القانون؛ بشكل شامل، حيث تظهر فكرة القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي الذي يستند إلى فكرة القانون الطبيعي والإنسان الطبيعي باعتبارهما الأساس المعرفي والأخلاقي للقوانين ولنظرية الحقوق. ويتم تعديل القوانين انطلاقًا من مثل هذه الأفكار(٣).

(٤) علمنة الفنون والأدب: تأخذ علمنة الفنون التشكيلية والنظرية الجمالية شكل فصل القيم الجمالية عن القيم الإنسانية وعن القيم الأخلاقية، فالعمل الفني تعبير رؤية صاحبه وحسب.

وتتم العلمنة للأدب على مستوى الموضوعات التي يتناولها الأديب، أو على مستوى الشكل الأدبي، أو على مستوى النظرية النقدية. فعلى مستوى الموضوعات، يتجه الأدب نحو تناول موضوعات ناجمة عن اختفاء

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٣٩.

(٢) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٤٠.

(٣) المرجع السابق٢/ ١٤٢.

المرجعية النهائية المتجاوزة، مثل انسحاب الإله من الكون، وضياع الإنسان، واختفاء المعنى، وتظهر مشكلات داخل العمل الأدبي، وتتغير النظرية النقدية للأدب ككل نتيجة غياب المرجعية النهائية المتجاوزة، فيصبح الأدب تعبيرًا ذاتيًا عن الفنان صاحب إرادة القوة الذي يحاول الوصول إلى أشكال فنية فريدة خاصة به تعبر عن ذاتيته[١].

(٥) علمنة السلوك: تصبح "القوى الاجتماعية" والظروف الاجتماعية الموضوعية مرجعية ذاتها، مكتفية بذاتها منفصلة عن القيمة الاجتماعية، ويتم شرح الإنسان في ضوء القوى الاجتماعية المحيطة، ثم يذوب فيها، ومن ثم يصبح المجتمع مقولة مطلقة لا يمكن تجاوزها ولا يمكن ردها إلى ما هو أدنى منها. ولعقلنة هذا الوضع، يُرسخ (من خلال الإعلام وغيره من المؤسسات "التربوية") في ذهن الناس حتمية التغيير وضرورته، بل ظَرْفة ولُطْفه، حتى يمكنهم تقبل إيقاع لا علاقة لهم به[٢].

(٦) علمنة العمل الإنساني، فالعمل لم يعد نشاطًا مرتبطًا باحتياجات الإنسان، وإنما أصبح نشاطًا يؤدي إلى الإنتاج وزيادته وتعظيمه. ولا تزال قوانين العمل لا تفرق بين الرجال والإناث باعتبار أن الجميع مادة استعمالية، ولا يصح الحديث عن أعمال مناسبة للرجل وأخرى للمرأة[٣].

ويمكن أيضًا الحديث عن العلمنة الشاملة للوظائف والحروف والمهن، بحيث تصبح بعض الوظائف (التي كانت مشينة وهامشية في كثير من المجتمعات) مقبولة، بل مرغوبة ومركزية. كما أن بعض الوظائف التي كانت تُوضع في قمة الهرم الوظيفي، بسبب مضمونها المثالي ومرجعيتها المتجاوزة، أصبحت تفقد مكانتها وتُهمش بسبب شيوع المرجعية المادية[٤]، فوظائف مثل عارضة الأزياء أو النجمة السينمائية أو المضيفة، كانت غير مقبولة في كثير من المجتمعات لأسباب مختلفة، منها أن مرجعيتها المادية تجعل الإنسان يشبه عضو الجماعة الوظيفية، فعارضة الأزياء تقوم بعرض مفاتنها وما ترتديه من أزياء لتشجع النساء على شراء السلعة التي تبيعها (السلعة والجنس)،

(١) المرجع نفسه، ٢/ ١٤٣.

(٢) ينظر: نفسه، ٢/ ١٤٤.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٤٥.

(٤) ينظر: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، بيروت، ودار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م، ص ١١٩.

ولذا؛ كان يقوم بهذه الوظائف إما عناصر وافدة، أو أبناء الطبقات الدنيا، أو أعضاء الأقليات. أما الآن، فإن هذه الوظائف أصبحت حلم كثير من فتيات الطبقة المتوسطة (في الشرق)، وأمرًا عاديًا تمامًا في الغرب، وذلك لارتباطها بقيم مادية مثل الشهرة، وبريق الأضواء، والمتعة، والثراء. وبالمقابل، تفقد كثير من الوظائف التقليدية مثل: (التدريس)، مكانتها وذلك لأنها تدور في إطار المرجعية المثالية المتجاوزة[١].

(٧) العلمنة الشاملة للملابس والطعام، إذ تبدأ عملية العلمنة (في العالم الثالث) بعملية تغريب الزي، ويصبح ارتداء الزي الغربي علامة على اتساع الأفق والحس الواقعي والعملي، وبدلًا من أن يكون هدف الرداء تغطية الجسد، أصبح هدفه إما جذب الأنظار إلى الجسد وتعميق الإحساس باللذة والتسخين الجنسي، أو مساعدة الإنسان على أداء وظيفته. ومن الظواهر الجديدة أنه لم يعد هناك حاجز واضح بين أزياء الرجال والنساء، وهو تعبير عن تزايد معدلات العلمنة والواحدية[٢].

وأما العلمنة الشاملة للطعام، يظهر ما يمكن تسميته "الطعام البراني" وهو طعام يدور في إطار المرجعيات المادية مثل السرعة والسهولة والنمطية. فيتزايد تناول الطعام خارج المنزل في المطاعم العامة، ثم يظهر "الطعام السفاري" وهو طعام يُعد بطريقة نمطية جمعية، يشتريه الإنسان عادةً من أنثى (البديل الحديث للأم) تبتسم له بطريقة نمطية، وهو عادةً ما يلتهم طعامه وهو يلهث من عمله إلى منزله (أو العكس)، بل قد يبتلعه وهو أمام التلفزيون.

وتظهر أشكال الطعام الفورية وهو طعام له طعم البلاستيك، يُخزن في فريزر الثلاجة وتقذفه ربة الأسرة في فرن الميكروويف، فيتم إعداده في دقائق ثم يقذفه أعضاء الأسرة في أفواههم وهم متراصون جنبًا إلى جنب أمام التلفزيون، ولا ينظر الواحد منهم في عيون الآخرين. وهم لا يتحدثون سويًا، ولا يأكلون من الأطباق نفسها، فكل عشاء وحدة مستقلة[٣].

(١) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٤٥. ١٤٦

(٢) ينظر: المرجع السابق، ٢/ ١٤٧.

(٣) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٤٩.

(٨) علمنة المرأة وأعضاء الأسرة؛ تفكك الروابط بين أعضاء الأسرة الواحدة وتظهر النزاعات الفردية المحض (التي يغذيها قطاع اللذة في المجتمع والفلسفة السائدة فيه) ورغبة كل فرد أن يحقق استقلاله وذاته ومصلحته ولذته "وأن يجد نفسه" فتزداد معدلات الطلاق. وتبدأ مؤسسة الزواج في الاختفاء كشكل للتنظيم الاجتماعي يتم من خلاله ربط الجنس بالقيم الإنسانية والاجتماعية، وتحل محلها علاقات أكثر حيادًا ومادية مثل علاقات الرفقة والتعايش.

العلمنة الشاملة للمرأة وهي عملية تُعبِّر عن نفسها فيما يُسمَّى "حركة التمركز حول الأنثى" وتقوم هذه الحركة بعزل المرأة عزلًا تامًا عما حولها، بحيث تتحول إلى فرد وحسب وتصبح مكتفية بذاتها، مرجعية ذاتها. ويعاد تعريف عمل المرأة في إطار المرجعية المادية النهائية، بحيث تصبح وحدة اقتصادية مادية وحسب، تعمل في رقعة الحياة العامة، ولذا؛ فإن عملها في منزلها كأم وزوجة (ذلك العمل الذي لا تتقاضى عنه أجرًا وتمارسه في رقعة الحياة الخاصة) يصبح غير موجود ولا قيمة له[١].

ثم يتطور الأمر، وبدلًا من الحديث عن حقوقها وحسب (كما هو الحال مع حركة تحرير المرأة، يبدأ الحديث عن لغتها الأنثوية "المستقلة"، وعن تاريخ النساء "المستقل" عن تاريخ الرجال، وعن إبداعات المرأة وخصائصها التشريحية التي تؤكد وجود حتمية أنثوية تجبُّ أية حتمية تاريخية، وتزعم أن الرجال ليس بمقدورهم فهم المرأة، كما تزعم أنهم لا يمكنهم دخول عالم النساء، ويبدأ الحديث عن المرأة لا كعضو في الأسرة، وإنما عن معاناتها كأم تقوم بأعمال (مادية) لا تتقاضى عنها أجرًا، وعن حقوقها الاقتصادية المادية (المساواة في الأجور)، بل عن حقوقها البيولوجية (حق الإجهاض) باعتبار أن جسدها ملك لها وحدها[٢].

العلمنة الشاملة للجسد فتُنزع عنه القداسة ويصبح مادة استعمالية نسبية محايدة، منفصلة عن القيمة، إذ يستطيع المواطن الغربي أن يمارس نشاطاته الجنسية أو شبه الجنسية (الطبيعية أو الشاذة) في حديقة عامة (والشرطة تقوم بحمايته)، أما لو قضى حاجته في الحديقة نفسها (أو بصق فيها) فإن الدنيا تقوم ولا تقعد! ولعل هذا يعود

(١) المرجع السابق، ٢/ ١٥١.

(٢) المرجع نفسه، ٢/ ١٥٤.

إلى اهتمام الحضارة العلمانية بالظاهر والسطح أكثر من اهتمامها بالباطن، لأن النموذج العلماني الشامل للمجتمع يدور حول مفهومين أساسيين هما المنفعة واللذة. ويمكن النظر إلى السكرتيرة الخاصة في المجتمعات الغربية "المتقدمة" فهي لم تَعُد تُقدم الخدمات الجنسية وحسب (اللذة)، بل أصبحت تقدم خدمات فنية أخرى مثل: الكتابة والاتصالات التليفونية (المنفعة)[١].

فالجنس هنا، إن هو إلا جزء من كل، فالسكرتيرة تقدم خدمات شاملة للمدير، فهي بديلة الزوجة والعشيقة والبغي. دون أن تكون زوجة أو عشيقة أو بغيًا! فوظيفتها تحقق المنفعة واللذة في آن واحد. ويُلاحظ أن قطاع الإعلانات في المجتمعات الاستهلاكية من أهم القطاعات التي تلتقي فيها المنفعة باللذة، ولذا؛ يستخدم الجنس للإعلان عن سلع نفعية محض لا علاقة لها باللذة مثل: صابون الحمام والسفر على الطائرة.

(٩) العلمنة الشاملة لأوقات الفراغ. ولعل من أهم أشكال العلمنة هو أن الفرد لم يعد يقضي وقت فراغه مع بقية أعضاء الأسرة، فقد ظهرت مؤسسات حكومية وغير حكومية (وكالات السياحة والرحلات) حلت محل الأسرة تتيح للفرد قضاء وقت فراغه بالطريقة التي يراها كفرد، لا كعضو في جماعة. وقد أدى هذا إلى غياب الرقابة الأسرية، وإلى ظهور أشكال غير اجتماعية من تزجية أوقات الفراغ مثل: أشكال معينة من الجرائم والمخدرات، ويبدأ قطاع اللذة في إنتاج المجلات الإباحية وأفلام العنف والجنس، ولعل ألعاب الفيديو والحاسوب (حيث يلعب الإنسان مع نفسه) ونحوها من المخترعات هي قمة علمنة أوقات الفراغ[٢].

العلمنة الشاملة للجريمة ولعل أول أشكال الجرائم هي التي ترتكبها الدولة ضد الأفراد والجماعات، فهي جرائم تتم بطريقة مؤسسية صارمة عن طريق قرارات يصدرها الخبراء. وتستند القرارات لا إلى معايير أخلاقية، وإنما إلى ما يتصور الخبراء أنه صلاح الدولة، ويتقرر على ضوء ذلك إبادة أقلية أو تجويع شعب أو رش مدينة بالأسلحة الكيماوية الجرثومية[٣].

---

(١) ينظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ١٦١. ١٦٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ٢/ ١٧٥.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ٢/ ١٧٦- ١٨٠.

وأخيرًا... هذه أهم المجالات العلمانية التي تحدث عنها المسيري (باختصار)، فالعلمانية –في نظر الدكتور المسيري– ليست جوهرًا ثابتًا يتبدى كله في عالم التاريخ دفعة واحدة، وإنما هي متتالية تتحقق حلقاتها تدريجيًا عبر الزمان، وتتحول أيضًا من علمنة الفكر وعلمنة الرؤية نحو درجات أشمل من العمليات فمن عالم الاقتصاد إلى عالم السياسة إلى عالم الوجدان والأحلام، ثم أخيرًا عالم السلوك في الحياة العامة والخاصة. ويرى أن الداروينية تسري وراء معظم فلسفات العلمانية الشاملة.

وهو يقول بأننا "يجب ألا ننظر إلى العلمانية "كنظرية كبرى" قادرة على تفسير الظواهر، أو جاهزة للتطبيق في كل مكان وزمان، كما أنه من غير العملي أن يتم حبس النقاش وكأنه صراع بين قيم الإسلام الإيمانية ومنطلقات الحداثة العقلانية، أو بين رغبة الإسلام للتمكن والنظام العالمي المتمكن، بل بين الإيمان الذي يجسد ما هو متجاوز والافتراض العلماني الثيوقراطي بأن الحقيقة التامة قد تم الوصول إليه"[1] . وما ذكره المسيري –يرحمه الله– جزءاً يسيراً من خطر هذا التيار الفكري البعيد عن هدي الله ومنهج رسوله ﷺ.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث نذكر أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة مع التوصيات:

أولًا: أبرز النتائج:

١. إشكالية مفهوم العلمانية لدى الدكتور المسيري؛ أن العلمانية ليست فعلًا واعيًا، أو تعبيرًا صريحًا؛ بقدر ما هي حركة عالمية خفية، وتعبّر عن ذاتها من خلال مظاهر مادية، ومنظومة فكرية تواجه الدين.

٢. أسس الدكتور المسيري نظرته باعتبار أن العلمانية ذات دائرتين أو مستويين: "العلمانية الجزئية"، و"العلمانية الشاملة"، ولا يمكن فهم الجزئية إلا باستيعاب الشاملة، لأنها بنيتها الكامنة ومرجعيتها النهائية، كونها علمانيتين لا علمانية واحدة.

(١) الإسلام والعلمانية في الشرق الأوسط عبد الوهاب المسيري، برويز منصور، وآخرون: المؤلفون الآخرون: جون اسبوزيتو، عزام التميمي، جون كين. الناشر: دار نشر هيرست وشركاه، لندن، الطبعة: الأولى ٢٠٠٠م/ ص٩٦.

٣. يذهب المسيري إلى أن عملية الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة هي في جوهرها عملية تفكيك للإنسان، فيلغي الحيز الإنساني ولا يبقى سوى الحيز الطبيعي المادي، فبدلًا من أن يكون الإنسان كائنًا مركبًا متكاملًا؛ فإنه يصبح الإنسان الطبيعي أو الإنسان الوظيفي.

٤. أضافت العلمانية الشاملة إلى الحضارة الغربية أنموذجًا جديدًا من الصراع الأخلاقي بين الأفكار الدينية المختلفة مثل: فكرة التنوير، وفكرة السقوط والخطيئة الأولى، وفكرة النفعية، حتى أجهضت معاني الفضيلة والروح والأخلاق.

٥. يرى المسيري بأن المطلق العلماني الكامن هو وحده المطلق النهائي والثابت، وما عداه في العالم هو المتغير، وعليه فالحضارة العلمانية الغربية بهذا المعنى؛ حضارة فريدة تمامًا، فلأول مرة في تاريخ الإنسان يُلغى الهدف والغاية.

٦. انطلق الدكتور المسيري في دراسته للعلمانية من منظور فلسفي، واستكشاف تفكيكي؛ مفاده أن الظاهرة الإنسانية تتشكل من صورتين: البنية الظاهرة، والبنية الكامنة. وعادةً ما تكون البنية الظاهرة تجليًا للبنية الكامنة، ورأى أن ينظر إليهما باعتبارهما دائرتين متداخلتين: الدائرة الجزئية، والدائرة الشاملة؛ تحيط بالأولى وتشملها.

٧. تترك العلمانية الجزئية حيزًا واسعًا للقيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة، بل وللقيم الدينية ما دامت لا تتدخل في عالم السياسة، أي أنها صيغة لا تسقط في النسبية أو العدمية، وهذه الصيغة هي الشائعة بين عامة الناس وبين الكثير من المفكرين العلمانيين.

٨. أطلق المسيري على العلمانية الشاملة العلمانية الطبيعية المادية، أو العلمانية العدمية، وهي رؤية شاملة للكون بكل مستوياته ومجالاته، لا تفصل فقط الدين عن الدولة، وعن بعض جوانب الحياة العامة، وإنما تفصل كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن كل جوانب الحياة العامة ثم عن كل جوانب الحياة الخاصة في نهايته.

٩. العلمانية الشاملة قد لا تكون إلحادية، أو معادية للإنسان بشكل صريح ومباشر، ولكنها على المستوى النماذجي الفعّال؛ تستبعد الإله من عملية الحصول على المعرفة ومن عملية صياغة المنظومات الأخلاقية، كما تستبعد الإنسان من مركز الكون بشراسة.

١٠. تبتدئ عملية العلمنة الشاملة في عالم السياسة؛ في محاولة فصل الدين والقيم والغايات والمطلقات عن

عالم السياسة؛ بحيث يتم الحكم على الظواهر والسياسية بمقاييس سياسية، ومن ثم تنفصل القيمة لا عن الدولة وحسب، وإنما عن المجتمع بأسره.

١١. العلمانية –في نظر المسيري– متتالية تتحقق حلقاتها تدريجيًا عبر الزمان، وتتحول أيضًا من علمنة الفكر وعلمنة الرؤية نحو درجات أشمل، فمن عالم الاقتصاد إلى عالم السياسة إلى عالم الوجدان والأحلام، ثم أخيرًا عالم السلوك في الحياة العامة والخاصة.

ثانيًا: التوصيات:

١. توصي الباحثة الباحثين والأكاديميين وطلاب الدراسات العليا بدراسة مفهوم العلمانية عند مفكرين آخرين على نمط رؤية المسيري لمفهوم العلمانية وتجلياتها.

٢. توصي الباحثة الأقسام الدراسية العلمية بتوجيه طلاب الدراسات العليا لدراسة فكر الدكتور المسيري ورؤيته لكثير من المسائل الثقافية والفكرية المعاصرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين